الحيوان فى شعر

عزت شندى موسى

﴿ دراسة موضوعية فنية ﴾

دكتور

محمد على سعد

مدرس بقسم الأدب والنقد

كلية اللغة العربية

بإيتاى البارود

جامعة الأزهر

مُقَدِّمَة

الحمد لله نزل القرآن , خلق الإنسان علمه البيان, وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة, والصلاة والسلام على خير من أفصح وأبان, وأوتى مجامع الكلم والبيان القائل: إن من البيان لسحر و إن من الشعر لحكمة، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد .. فقد احتل الحيوان مكانة سامقة فى الشعر العربى على مر العصور والأزمان, والأمكنة, فقد حرص الشعراء على تصويره وبيان أثره فى حياة الإنسان سواء كان أليفا نافعا كالخيل والإبل والحمام وأنواع الطيور, أو كان وحشيا ضارا كأنواع السباع وجوارح الطير والذئاب والأسود وغيرها. وقد استطاع كثير من الشعراء أن يصوروا علاقتهم ببعض الحيوانات ومدى صلتها بهمومهم وأحزانهم وعواطفهم ومشاعرهم كالناقة والفرس, علاوة على الوصف الحسى الذى يسبغه عليهما.

كما استطاع الشعر العربى أن يصور الجانب الآخر فى وصف الحيوان وهو الجانب السلبى المتمثل فى الإضرار والأذى الذى تسببه أنواع كثيرة من الحيوان للإنسان مهددة حياته وأمنه واستقراره كالأسد والذئب, وغيرهما من الحيوانات المفترسة الضارية, وفى هذا التصوير لا ينسى الشاعر وصف شجاعته وبسالته وغلبته على هذه الحيوانات وقهرها.

ولم يتوقف الشعر عند تصوير هذين الجانبين فى الحيـــوان (النفـــع والضرر) لكن تطورا ما قد حدث وبخاصة فى العصـــــر العباســـى, احتـــل الحيوان من خلاله مكانة عالية حتى صار وصفه فنا تنتظمه قصائد مســـتقلة ناطقة بمشاعر وأحاسيس الشعراء , بلهم اتجهوا إلى رثائه والعطف عليـــــه, واتخاذه رمزا لبعض القضايا التى لا يستطيع الشاعر التصريح بها.

ويأتى العصر الحديث فينشغل الشعراء بقضايا مجتمعاتهم السياســـية والاجتماعية والثقافية, لكنهم لم يغفلوا وصف الحيوان, وبخاصة الحيوانـــات التى تقدم خدمة للفلاح كالبقرة والحمار, وصديق الفلاح(أبى قردان).

كما كان لعوامل البيئة وتطور الحياة فى العصر الحديث إسهام كبـــير فى انشغال الشعراء أو أكثرهم عن شعر الحيوان إذ لم يعد الشاعر يســـتخدم الناقه والفرس فى السفر والحرب, كما لم يعد يرى الذئـــاب والأســـود فـــى الصحراء والفيافى كما كان الحال من قبل. بله لم يعد يراها إلا فى حدائـــق الحيوان, ومن ثم لم تكن التجارب بالقدر الذى كانت عليـــه فـــى العصـــور السابقة.

ومن التجارب المعاصرة والمتميزة تجربة الشاعر الطبيـــب (عـــزت شندى موسى) فى ديوانه: (مع الحيوان) والذى يعد أول عمل متكـــامل عـــن الحيوان فى الوقت المعاصر, قلّ أن يجاريه فيه شاعر آخر, إذ مـــن خلالـــه استطاع أن يطلعنا على نماذج ونصوص شعرية تعد اتجاها جديدا فى وصف الحيوان, إذ تحمل فى ثناياها شحنة شعورية عميقة, نتجت من صلته الحميمة والوطيدة بالحيوانات والطيور منذ طفولته وفى مراحل حياته كلها.

ولما كانت التجربة على قدر كبير من الجودة والرقى فقـــد أردت أن أقف على موضوعها وشكلها وجميع جزئياتها, فكان اختيارى لهذا الموضوع وتلك الدراسة "الحيوان فى شعر عزت شندى موسى, دراســـة موضوعيـــة فنية". وهذه الدراسة بهذا الشكل لم تتوافر عن شاعر فى هذا الغرض , وإنما كانت هناك دراسات عن الحيوان فى الشعر عامة, لقلة النصوص والنمـــاذج التى يمكن أن تقوم عليها دراسة متكاملة عند شـــاعر بعينـــه, ومـــن هـــذه الدراسات المختصرة: "أساليب الصناعة فى شعر الخمر والناقة بين الأعشـــى والجاهلية" للدكتور محمد محمد حسين, و "ملامح من رثاء الحيوان فى الشعر العباسى" للدكتور طه محسن وهو عبارة عن بحث فى مجلة آداب الرافديـــن, وبحث آخر تحت عنوان: "قراءة عصرية فى أدب الذئب عند العـــرب" فـــى مجلة المورد للدكتور "عناد غزوان". ومن هذه الدراســـات أيضـــا: "الصيـــد والطرد فى الشعر العربى حتى نهاية القرن الثـــانى الـــهجرى" و "وصـــف الحيوان فى الشعر الأندلسى" و "مشهد الحيوان فـــى القصيـــدة الجاهليـــة" , وكلها " – كما نرى – دراسات تتناول بالدرس والتحليل – شعر الحيوان فى عصور مختلفة دون قصرها على شاعر بعينه, ومن ثم أحســـب أن دراســـة شعر الحيوان عند "عزت شندى موسى" جديدة فى هذا المجال, ترجع جديتـــها إلى طرافة وجدية التجربة التى تناولها الشاعر وأودعها ديوانه المستقل الـــذى أشرنا إليه سابقا.

وقد اقتضت خطة الدراسة أن تكون على النحو التالى:

- **تمهيد:** تعرفنا من خلاله إلى نشأة الشاعر وأهم الملامح الحياتية لـــه, وأهم المؤثرات التى أدت به إلى شعر الحيوان.

- **الفصل الأول:** "مفهوم الحيوان ومكانته فى الشعر العربى" استطلعنا من خلاله مفهوم الحيوان فى اللغة والاصطلاح الأدبى, كما قمنا – من خلاله – بإطلالة على الحيوان فى الشعر العربى. عبر العصور, مع إيراد بعض النماذج الشعرية الكاشفة.
- **الفصل الثانى:** "محاور شعر الحيوان عند الشاعر" تناولنا فيه أهم المحاور التى تناولها الشاعر فى شعر الحيوان.
- **الفصل الثالث:** "شعر الحيوان والأداء الفنى عند الشاعر " تعرفنا فيه إلى أهم السمات الفنية فى شعر الحيوان عند الشاعر.
- الخاتمة وفيها أهم النتائج التى توصلنا إليها فى ثنايا البحث.
- فهرس بأهم المصادر والمراجع.

وبعد:

فهذا ما وفقنى الله إليه, ما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

المؤلف

الدكتور/ محمد على سعد

مدرس الأدب والنقد بالكلية

تمهيد

الشاعر : النشأة والمعالم الحياتية

الوقوف على الملامح الحياتية للأديب أو الشاعر ضرورة ملحة للوقوف على أهم الملامح الفنية, لما لها من تأثير مباشر على اتجاه الشاعر وإصباغه بصبغة معينة فى شعره .

لذا كان من الضرورة الوقوف على أهم الملامح الحياتية للشاعر "عزت شندى موسى" ومعرفة أهم الأسباب والدوافع التى أسهمت فى تكوين ثقافته, وصقل موهبته والتعرف إلى أهم العوامل التى جعلته مبرزا فى شعر الحيوان.

ومن ثم سيكون التناول بالقدر الذى يكشف هذه الجوانب, حتى إذا ما حللنا شعره كان التحليل صحيحا ومستندا على بعض الثوابت الصحيحة.

(أ) ملامح حياتية :

ففى قرية (أم أخنان) أو (خنان) مركز قويسنا – منوفية ولد الشاعر "عزت شندى موسى" (عام ١٩٠٩) من أسرة طيبة تقدر العلم حق قدره, أكسبها الريف الوديع والجو الصافى والمياه الرقراقة, والسماء الصافية, والطبيعة الهادئة والغنية بأسباب السعادة والصفاء وصفات الجد والعمل, بالإضافة إلى ترقيق المشاعر وإرهاف الأحاسيس.

وفى هذه القرية راح الشاعر منذ نعومة أظفاره يمتع بصره بمظاهر الطبيعة الغنية بألوان الجمال, من خضرة يانعة وزهور متفتحة , ومياه

رقراقة صافية, وبحكم وجوده فى هذه البيئة أحب الحيوانات بأنواعها فـــراح يراقبها مراقبة الواعى الفطن ورأى فى قطعانها وأسراب الطير عوضا لـــــه عن الورى والناس, لما لامسه فيها من جمال وبراءة لا يحس بهما إلا إنسان ذو ذوق عال وإحساس مرهف, ومن أبدع ما قال فى ترجمة هذا الإحســـاس وهذه المشاعر معبرا عن حبه للحيوان والطير[1]:

دعنى أخى أحيا مع الحيـــــوان ... فى غابة فيناتة الأغـصـــــان
وأهيـــــم بين قطيعه متنقـــــلا ... فوق الهضاب الخضر والريضان
وألقى الطبيعة فى يديع جمالهـــا ... وأشيـــم صفو النبع الغـــدران
دعنى أر الطير الجميل بديع بأيكـة ... يشدو وينشد أعـذب الألـــحان
وأمتع العين التى أقذى الــــورى ... أجفـانــها بشوارد الغـــزلان
أرنو إلى العين الحسان من المـها ... فيـهزنى مـن كحـلها العينـان
وإلى الظباء تهيم بين ربوعـــهـــا ... فوق الربى ومخضل الكـثـــبان

ويقول عن تعلقه بالحيوان وانشغاله به منذ طفولتـــه [2] "ألفـت منـذ طفولتى الحيوان وعشقت صحبته فقد عودتنى والدتى على حبه وعلمتـــى العطف عليه فكنت طوال النهار ألعب مع قط أو أداعب كلبا وإذا أويت إلـــى فراشى نام بجوارى هذا القط أو ذاك الكلب أو الاثنان معا".

---

(١) ديوانه : مع الحيوان الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ ص ١٨ .
(٢) ديوانه : مع الحيوان هامش ص ٢١ .

ولعل أشعاره فى الحيوان جاءت صدى لتلك المشاهدات والتأملات فى عالم الحيوان ومملكة الطير, منذ المرحلة الأولى من حياته, فسجلها فى حنايا نفسه, واختزنها فى ذاكرته حتى إذا ما جاءت الفرصة خرجت فى قوالب فنية رائعة تدل على تأثر, وتنم عن معايشة واختلاط للحيوان والطير.

وفى هذه البيئة الغنية بأسباب الحياة والجمال تخطى سنوات دراسته الابتدائية بتفوق وامتياز ,ورغم حصوله على الدرجة النهائية فى امتحان مادة اللغة العربية بالبكالوريا, إلا أنه آثر الالتحاق بكلية الطب بدلا من كلية الآداب, وهو فى هذه الأثناء كان يداوم على نظم الشعر,ونشره فى مجلات السياسة الأسبوعية والبلاغ وكوكب الشرق, وكان ذلك فى أواخر العشرينيات (١).

وقد ساعدته دراسته على فى الطب وعمله بهذه المهنة الإنسانية – لما لها من صلة بعلم وظائف الأعضاء وعلم التشريح – على إدمان التفكير فى قدرة الله, ودقة صنعه فى خلق الإنسان والحيوان , ورعة إبداعه فى تكوينها, مما كان سببا فى توسيع مدركاته وإنارة بصيرته وشحذ خياله وإرهاف أحاسيسه, ومن ثم خرجت أشعاره متسمة بدقة الوصف, وعمق التفكير, كما كان الحال لبعض الشعراء ممن عملوا بمهنة الطب مثل: الدكتور "إبراهيم ناجى", والدكتور "أحمد زكى أبو شادى".

---

(١) أنظر شعراء ودواوين، أحمد مصطفى حافظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠، ص ١٨٢، ومجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية عدد ١٩٨٧/٧ من مقال للدكتور السيد مرسى أبو ذكرى بعنوان "أعلام الفكر والأدب بالمنوفية" .

يحدثنا الدكتور عبد المنعم النمر ـــ وكان صديقا للشاعر ـــ عن مرحلة من حياة "عزت شندى" يكشف من خلالها عن بعض صفاته الخلقية, ومدى إخلاصه لمهنته, فيقول[1]: "عرفته فى بلدتى (سوق) خلال الأربعينيات طبيبا شابا, ممتلئا قوة وفتوة يستحوذ على ثقة الناس بطبه وأمانته ودماثة خلقه ورقة طبعه وحسن معاملته لمرضاه, ولكل الذين يتصلون به حتى طاب له المقام فى دسوق واشترى عزبة فى زمامها كبعض الأطباء من زملائه, الذين تستهويهم دسوق, برقة أهلها, وحسن موقعها".

وبعد هذه المرحلة انتقل الشاعر إلى القاهرة وزحامها, وهو فى هذه الأثناء سواء فى دسوق أو فى القاهرة - كان يواصل عطاءه الشعرى بقوة واقتدار, وظل هكذا حتى انتقل إلى جوار ربه بعد أن ملأ الساحة الأدبية شعراً يتدفق حيوية وعذوبة ورقة, وبعد أن خاض غمار الحياة بروح الإنسان, ونظر إليها ونفذ إلى أعماقها بسلاح الإيمان, فجعل منه ذلك إنسانا عاشقا, يطير بجناحيه, ليكتشف الحياة بدقائقها, فلا يجذبه تيارها, ليمزجه بما يحمله معه من أخلاط تؤذى أكثر مما تسعد, وتؤلم أكثر مما تسر.

(ب) ثقافته :

الأديب أو الشاعر لا تكفيه الموهبة أو الإلهام لإنجاز عمل أدبى, إذ إن الإلهام عملية فجائية كما يقول "فليكس كلاى": "إننا نطلق كلمة الإلهام على لحظات الإبداع الفجائية, وهى لحظات تنتابنا مصحوبة بأزمات انفعالية وتبدو

([1]) مجلة الثقافة عدد ١٠٣ ، أبريل ١٩٨٢ .

بعيدة عن العمليات العادية للعقل والشعور, بعيدة عن حكم الإرادة وسيطرتها تأتى غير متوقعة [١].

وإذا كان الإلهام بهذا الوصف, فإنه لا يكفى لإنجاز عمل فنى, بل يحتاج إلى أصالة وثقافة يصير العمل بدونها سطحيا لا قيمة له.

وتتمثل هذه الأصالة فى تلك التربة التى تضرب فيها جذور الأديب أو الشاعر فينظر إلى ما سبقه من نماذج الأدب, وما شفعت به من قواعد وتقاليد, لتفتح أمام عينيه الآفاق وتفتق ما فى ذهنه من إبداعات، فهى الأصول الثابتة، والوطن الذى يشب فيه الأديب حتى يستوى على سوقه, وليس بصحيح أن أديبا يستطيع أن يقف على قدميه دون أن يرسخ قدمه على القلاع التى بناها الأدباء السابقون[٢].

ومن ثم فإن أول روافد الثقافة لأى شاعر أن يتمثل أعمال السابقين ويسير على هديها, دون أن يذوب فيها أو تتلاشى شخصيته, وإنما عليه أن يأتى بالجديد الذى يتمثل فى خاطر من سبقوه.

ولهذا فإن غالبية الشعراء – فى بداية مشوارهم الفنى – يلجأ ون إلى الشعر القديم, فيحاكونه فى شكله ومضمونه, وبعد هذه المرحلة من المحاكاة والتقليد يحاول الشاعر الاستقلال بنفسه بعد أن يكون قد أشبع نهمه ونمى موهبته بهذا التراث, بالإضافة إلى ثقافة عصره ومتطلبات مجتمعه.

---

(١) الأسس النفسية للإبداع الفنى، مصطفى سويف ط ٤ دار المعارف ١٩٨١. ص ١٩٠ – ١٩١ .

(٢) أنظر، فى النقد الأدبى، د. شوقى ضيف، دار المعارف ١٩٨١، ص ١٧٦.

وشاعرنا (عزت شندى) أحد أولئك الشعراء الذين تربوا على تلك التربة الخصبة وذاك التراث التليد الذى يعد نبعا صافيا. وموردا عذبا لتكوين ثقافة عالية وذوق راق, فقد أنكب الشاعر منذ صباه على كتب الأدب ودواوين الفحول من الشعراء, والتى كانت تزخر بها مكتبة والده, فاستوعبها بشغف وفهم, لميله الفطرى إلى الترنم بالشعر ونظمه, وساعده على ذلك حرص والده وتكليفه له يوميا بالقراءة على مرأى ومسمع منه فى تلك الدواوين, ومكافأته على ذلك بسخاء, مما كان سببا فى رسوخ قدم الشاعر فى نظم الشعر وقرضه, واتساع مداركه وصقل موهبته وإرهاف إحساسه.

ومن روافد ثقافته كذلك, أن والده كان كثيرا ما يصحبه معه إلى الأماكن العامة والنزهات الخلوية التى يرتادها بين الحين والحين, فلما بلغ أشده كان يقضى جل وقت فراغه, فى حديقة الحيوان بالجيزة, دارسا, ومتفحصا متأملا, فى مملكة الطير والحيوان , يراقب طباعها, ويسجل فى واعيته الباطنة ما يستخلصه فيما بينه وبين نفسه, من طول المراقبة والمشاهدة عن أطوارها, حتى إذا امتلأت نفسه وازدحمت مخيلته بشتى الأحاسيس والمشاعر، فاض فيضا ذاتيا, بابتداع حر تلقائى وأبدع لنا لوحة بديعة, نابضة بالحياة [1].

ولعل هذا هو السبب فى نزوع الشاعر إلى هذا النوع من الشعر (شعر الحيوان) واستقصائه أدق التفاصيل, التى قلما ترد على الخاطر, أو يلتفت

---

(1) أنظر مقدمة ديوانه مع الحيوان، لعزت شندى موسى بقلم الشاعرة جليلة رضا، ص١١ .

إليها غيره, هذا فضلا عما أضافته دراسته فى الطب وعمله إلـــى رصيـده الثقافى من إطلاع على بعض الأسرار فى خلق الإنسان والحيوان.

وثمة رافد آخر, أسهم فى دقة الشاعر وتصويره للكائنات من حولـــه, تمثل فى الثقافة الدينية التى ثقف الشاعر بها نفسه, فأملته عليه تلـك الثقافـة النزوع إلى النزعة الدينية, التى جعلته يهتف دائمـــا بحـب الله ورسـوله , ويترجم عن هذا الكون الأخرس, معبرا عن قوة الإيمان برب الأكوان يفسر- شعرا - ما ذكره الله فى قرأنه عن كونه ومخلوقاته ﴿ سَـبَّحَ لِلَّـهِ مَـا فِـي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

فكان يتمثل هذه النزعة الدينية فى كل أشعاره اعتقادا منه أن كل شىء فى هذا الكون سواء كان صغيرا أو كبيرا إنما هو من صنع الخالق سبحانه , فنراه يتحدث - مثلا - عن الريف وعما فيه من مظاهر القدرة وإبداع الخالق من زروع وثمار ومياه وحيوانات مختلفة الأشكال والأنـــواع قلمـا تلفـت الأنظار إلا من لديه حس دينى وعقيدة إيمانية راسخة وثقافة إسلامية عاليـة وانظر إليه وهو يتحدث عن ذلك :

هـذه قـدرة المـهيمن تبـــدو أينما سرت .. فاتئد فى المسـير

ثم يتحدث عن الكون كله وأنه دان للخالق سبحانه فيقول :

آمنـت أن الكـون دان لخالـــق رب الشموس ومبـدع الأقمـار
يا مبدع الشمس التى عم الدنـــى أضواؤها والكوكـــب السـيار
إن كـان فى الآفـاق نور بـاهر فـلا أنت حقـا مصدر الأنـوار

---

(١) سورة الحديد، آية (١) .

وهذه النزعة الإيمانية التى فاضت بها أشعاره وعذبت بها ألحانه, قد رققت مشاعره وأرهفت أحاسيسه ونمت فيه النزعة الإنسانية الراقية, التى برزت فى أشعاره التى قالها فى الحيوان والطير, وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله.

المهم أن الشاعر قد تعددت منابع وروافد ثقافته, فجاءت أشعاره صدى لها وصدر فى جل أعماله الشعرية عن هذا الرصيد الثقافى المتنوع حتى غدت صورة حقيقة لشخصيته وملمحا واضحا من ملامح حياته.

(ج) آثاره :

ومن آثاره الشعرية :-

١- مواكب الحياة (ديوان شعر) طُبعَ باشراف المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٠ .

٢- مع الله ورسوله (ديوان شعر) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣- مع الحيوان (ديوان شعر) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ .

الفصل الأول

مفهوم الحيوان ومكانته فى الشعر العربى

أولاً : مفهوم الحيوان

(أ) فى اللغة :

الحيوان فى اللغة اسم يقع على شىء حى, وسمى الله عز وجل الآخرة حيوانا فقال: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ [١] أى الحياة, والمعنى أن من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حيا لا يموت, فمن أدخل الجنة حيى فيها حياة طيبة, ومن دخل النار فإنه لا يموت فيها ولا يحيا"[٢].

وقيل أن الحيوان كل ذى روح, والجمع والواحد فيه سواء, وقيل الحيوان عين فى الجنة, أو ماء فى الجنة لا يصيب شيئا إلا حيى بإذن الله عز وجل, وقال بن سيدة : والحيوان جنس الحى, وأصله حييان, فقلبت الياء التى هى لام الكلمة واواً, استكراها لتوالى اليائين لتختلف الحركات[٣].

والحيوان كل ما هو حى من إنسان أو غيره, وفى حديث ابن عمر: إن الرجل ليسأل عن كل شىء حتى عن حيَة أهله قيل معناه انه يسأل عن كل شىء حى فى منزله الهر وغيره فأنث الحى فقال حيَة, وقال أبو عبيده فى

---

(١) العنكبوت ٦٤ .

(٢) أنظر لسان العرب – ابن منظور ج٢ – مادة حيا – دار المعارف .

(٣) السابق – ج ٢ .

تفسير هذا الحديث: إنما قال حية لأنه ذهب إلى كل نفس أو دابَة فأنث لذلك[1].

كما يطلق الحيوان على من بقى من الأهل حيا وكانت العرب تقول: كيف أنت وكيف حيَة أهلك؟ أى كيف من بقى منهم حيا, قال مالك بن الحارث الكاهلى :

فلا ينجو نجاتى ثَمّ حىٌ   من الحيوات ليس جناح

أى كل ما هو حى, فجمعه حيوات وتجمع الحيَة حيوات[2].

ومما سبق نلحظ أن المعنى اللغوى لكلمة (حيوان) تدور فى فلك المعانى الآتية:

(أ) أنها اسم يقع على شىء حى .

(ب) أنها تطلق على كل ذى روح من الإنسان أو الحيوان .

(ج) أنها تطلق على من بقى حيا من الأهل .

هذا بالإضافة إلى أن مادة (حيا) لها مشتقات كثيرة ومعان متعددة لكن ما أوردناه أهم ما نريده من هذه المادة فى هذا الشأن.

(ب) فى الاصطلاح :

إذا كنا قد عرفنا أن كلمة حيوان تعنى فى اللغة كل شىء حى من الإنسان وغيره , فإنها تعنى فى الاصطلاح الأدبى الحيوان بأنواعه المختلفة

---

(١) السابق ، ج٢ .

(٢) السابق ٢ .

من البهائم والأنعام والوحوش, أى الحيوان الأليف والمأكول وغير المأكول والنافع منه والضار.

والكائنات ترجع فى أصل خلقتها إلى قسمين: جماد ونام وقد قسم "الجاحظ" النامى إلى قسمين: حيوان ونبات, وجعل الحيوان على أربعة أقسام: شيء يمشى وشيء يطير, وشيء يسبح, وشيء ينساخ أى يمشى على بطنه. إلا أن كل طائر يمشى وليس الذى يمشى ولا يطير يسمى طائراً، والنوع الذى يمشى على أربعة أقسام: ناس, وبهائم, وسباع, وحشرات[1]. وقد ورد هذا التقسيم مجملا وبدقة عالية وحكمة بالغة فى كتاب الله عز وجل فى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2].

فالذى يمشى على بطنه الزواحف والذى يمشى على رجلين الإنسان والطيور إذا أعددناها مما يمشى إذ كل ما يطير يمشى , والذى يمشى على أربع بقية الحيوان بأنواعه المختلفة.

وقد استخدم القرآن الكريم مسميات لأنواع كثيرة من الحيوان , دون ذكر لفظ (حيوان) فمثلا فى معرض ذكر ما أحل للإنسان أكله من أنواع الحيوان يعبر بلفظ بهيمة الأنعام, وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ

---

(1) أنظر الحيوان : الجاحظ – تحقيق وشرح هارون – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١/٢٧.

(2) النور – الآية ٤٥ .

الأَنْعَامِ إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّـــهَ يَحْكُـــمُ مَـــا يُرِيدُ ﴾ (١).

قال الزجاج فى تفسير هذه الآية : "إنما قيل لها بهيمـــة الأنعـــام, لأن كل حى لا يميز فهو بهيمة, لأنه أبهم عن أن يميز" وهذا معناه أن لفظ بهيمـة يطلق كما قال صاحب اللسان, على ذات أربع قوائم من دواب البر والماء(٢). لكن إضافة بهيمة إلى الأنعام أفادت أن الأنعام كل ما يؤكل لحمـــه. وينتفـــع بجلده وصوفه, ويفهم ذلك من قول الله سبحانه : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيـــهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٣) وقد ورد فى اللسان أن الأنعام تعنى: الإبـــل والبقر والغنم. والنَعم الإبل خاصة(٤). وفى معرض آخر ذكـــر الله ســـبحانه أنواعاً من الحيوان مسماة بأسمائها مما يتخذ للركوب والزينـــة فقـــط مثـــل الخيل والبغال والحمير فى قوله تعالى: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَـــا وَزِينَةً ﴾ (٥).

وإذا كان هذا جانبا من الحيوان مما ينتفع بأكلـــه وصوفـــه أو يتخـــذ للركوب والزينة فإن القرآن قد ذكر كذلك صنوفا من الحيوان الضار للتشـــبيه حينا, وللاعتبار حينا آخر, ومن ذلك قوله تعالى فى حق من تَمســـك بآيـــات الله وأحكامه ثم انسلخ منها : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْـــهِ يَلْـــهَثْ أَوْ

---

(١) المائدة – الآية ١ .
(٢) اللسان – مادة بهم .
(٣) النحل (٥) .
(٤) اللسان – مادة نعم .
(٥) النحل (٨) .

تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ [1] ومنه قوله تعالى فى بيان موقف بعض من أعرضوا عن التذكرة أو الهدى, وفرارهم منها كفرار الحمر من الأسد: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [2] ومنه قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام ذاكرا الذئب كنوع من الحيوان المفترس : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [3] . ومن الحيوان الذى ذكره القرآن على سبيل تحريمه أكلا وتجارة الخنزير وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ [4]. ومما ذكر فى القرآن من أنواع الحيوان, على سبيل القوة والاعتبار الفيل وذلك فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [5]. وهكذا نستطيع أن نلحظ أمرا هاما وهو: أن القرآن الكريم, ذكر هذه الأصناف من الحيوان كلا باسمه دون ذكر لفظ حيوان ويعلل الجاحظ ذلك بقوله: "ولو أن الحكماء وضعوا لكل ما ليس بنام اسما,كما وضعوا للنامى اسما, لا تبعنا أثرهم, وإنما ننتهي إلى حيث انتهوا"[6] وهذا معناه أن المخلوقات تنقسم إلى جماد ونام, ولما كان لكل نوع من النامى اسما يختص به مثل إنسان وفرس, وناقة وأسد وذئب, وثعبان إلى غير ذلك, مما به روح, فقد اكتفى بذكر أسمائها, دون ذكر مصطلح حيوان, إذ عرف أن الحيوان لا يخرج فى لغة العرب عن فصيح

---

(1) سورة الأعراف (١٧٦) .
(2) سورة المدثر (٥٠ ، ٥١) .
(3) يوسف (١٣) .
(4) البقرة ١٧٣ .
(5) سورة الفيل (١) .
(6) الحيوان ٢٦/١ .

وأعجم, والفصيح هو الإنسان والأعجم هو الحيوان, بكل أنواعه وصنوفه" (١) فعندما يطلق لفظ فرس , أو ناقة أو ثعلب يعرف بأنه حيوان.

وقد عرف لدى النقاد والأدباء والشعراء أن الحيوان هو تلك الأنـــواع من البهائم والأنعام والوحوش المفترسة والكلاب والقطط, وما يتخذ للركـوب والزينة مثل الخيل والبغال والحمير والإبل, وبالجملة هو كل ماله قوائم أربع من هذه الأصناف وغيرها.

وعلى أساس ما سبق لا تعد الطيور من أنواع الحيـــوان كمـــا ذكـــر الجاحظ" وذلك لأن القرآن الكريم قد فرق بين الحيوان والطير, فـــى قولـــه تعالى:﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (٢) قال مجاهد فى تفسير الآية : أى أصناف مصنفة تعـــرف بأســـمائها, وقـــال قتادة:" الطير أمة والإنس أمة والجن أمة(٣). ومعنى ذلك أن الآيـــة تتضمـــن ثلاثة أصناف من المخلوقات, البهائم والدواب, والطيور, والإنسان.

وبالنظر فى الدراسات الأدبية التى اعتنت بدراسة الحيوان فـــى الأدب العربى. نراها تفرق بين الحيوان بأصنافه وبين الطيور(٤).

---

(١) أنظر السابق ٣١/١ .
(٢) سورة الأنعام ٣٨ .
(٣) أنظر مختصر تفسير بن كثير – اختصار وتحقيق محمد على الصابونى – دار البيان العربى ١٩٨٨ – حا /٥٧٧ .
(٤) أنظر فى الصيد والطرد فـــى الشـــعر العربـــى ووصـــف الحيـــوان فـــى الشـــعر الأندلسى،وشعر الطبيعة فى الأدب العربى .

وعلى ذلك نرى أن الحيوان فى الاصطلاح الأدبى يعنى كل البهائم والأنعام مما يؤكل لحمه أو يتخذ للخدمة والركوب, بالإضافة إلى الحيوان الأليف مثل القطط والكلاب.

ونظرة عامة فى ديوان "مع الحيوان" لشاعرنا "عزت شندى موسى" نرى أنه وجه كل اهتمامه ودبج قصائده فى هذه الأنواع من الحيوان, وهذه هى عناوينها: (الأسد الحبيس) (الكلب المهجور) (فقدت كلبى) (مات كلبى) (فجيعة فى قطة) (القطة الشهيدة) الثعلب المحنط (الذئب المحنط) .

وقد ورد فى الديوان بعض القصائد فى الطيور مثل: (اليمامة العاشقة) (صفا الجو يا ورقاء) (الطائر الأسير) (الفرخ الحزين), و لعل الشاعر اعتبرها من فصيلة الحيوان, مستندا فى ذلك إلى أصل الاستعمال اللغوى لكلمة حيوان, حيث استعملت اسما على كل شيء حي, كما أشرنا من قبل.

ثانياً : إطلالة على الحيوان فى الشعر العربى

احتل الحيوان – بكل أنواعه الأنيس وغيره – مكانة كبيرة عند العرب , عبر العصور والأزمان, وبخاصة عند الأدباء والشعراء, فوصفوا أنواعا كثيرة من الحيوان واعتبروها مظهرا من مظاهر الطبيعة المتحركة التى تلفت الأنظار وتسترعى الانتباه وتثير الذهن, وتحرك العاطفة , وتشحذ القريحة, لذا كان للشعراء – على اختلاف العصور والأمكنة – أوصاف كثيرة لمظاهر الطبيعة المتحركة, وخاصة الحيوان كل حسب بيئته وما توافر فيها من صنوفه, لذا كان لزاما أن نطل فى عجالة على بعض أوصاف الحيوان عبر العصور, لنقف على مدى اهتمام الشعراء بهذا الأمر.

(أ) العصر الجاهلى :

لعبت البيئة فى ذلك العصر دورا كبيرا, فى حياة العرب آنذاك والتأثير فيهم, حتى جاءت أشعارهم صدى لتلك البيئة ومظاهرها, فوصفوها أجمع وصف, وصوروها أحكم تصوير, ولم يتركوا فى الفلوات أو المفازات شيئا إلا وصفوه, "فوصفوا وحوشها الضارية, وذائبها العاوية, وظباءها السارحة, وحمرها القارحة, كما وصفوا جوارح السماء وصوادحها, وخشاش الأرض وهوامها, ثم وصفوا الرسوم والأطلال, والسهول والجبال, والأنواء والأمطار, والعيون والآبار, والبرق والرعد والأفلاك والكواكب ,..... وعلى الجملة لم يتركوا فى قراهم ومدنهم منظرا إلا رسموه, ولم يستخدموا مما يقع فى محيطهم أو تحت سمعهم وبصرهم حيواناً أو جماداً إلا وصفوه"(١).

ويشير المؤرخون إلى أن جزيرة العرب كانت تعرف مثل ما نعرف من الحيوانات الأهلية كالبغال والحمير والبقر والضأن والمعز .... الخ, ولا تجهل كذلك الكثير من الضوارى كالأسد والنمر والفهد(٢).

ثم عنى الشاعر الجاهلى بوصف الطبيعة وبخاصة المتحركة وصفاً ينم عن تأثره ومعايشته لمظاهر تلك الطبيعة, لكنه اعتنى عناية خاصة بوصف حيوانين لهما مكانة سامية فى نفسه لما يقدمان له من الخدمة والمساعدة , وهما الناقة والفرس , فالناقة أو الإبل أعظم خلق أرضى فى نظره , لما

---

(١) الوصف فى الشعر العربى، عبد العظيم قناوى ط١، ١٩٤٩، مطبعة مصطفى الحلبى جـ ١/٥٣ ، ٥٤ .

(٢) أنظر حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ترجمة : عادل زعيتر ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠ ص ٤٢ .

تسديه إليه من صنائعها فى حله وترحاله, كما تعينه على نوائب الدهر, تصبر معه على لأواء الأيام, دون أن تشكو نصبا أو تحس لغوبا, فهى وسيلة سفره فى تلك الصحراء القاحلة, يحدو لها فتشاركه فى عواطفه, وتنقاد له انقياد الصديق لا انقياد الذليل, فتنيخ إذا أراد إناختها, وتنهض حينما يطلب نهوضها, كما أن فى لبنها إطفاء لظمأه وإرواء لغلته, وفى لحم فصالها سدا لجوعه, وذهابا لمسغبته, وفوق كل هذا أو ذاك, فهى فى صورتها التى خلقها الله عليها, من الضخامة والخلقة المخصوصة تثير الانتباه وتشد الأذهان نحوها, لذا ضرب الله بها مثلا فى عظم الخلق وبديع القدرة للذين لا يريدون الاعتراف بقدرة الخالق العظيم, فقال ضاربا لهم المثل بما تحت أيديهم : ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .(١)

لهذا وغيره لم يكن غريبا أن يحتفى العربى بالناقة وخاصة الشاعر, لما يتمتع به من إحساس مرهف, ومشاعر رقيقة, تحس الجمال وتشعر به, فلا يملك إلا أن يعبر عن تلك الأحاسيس وهاتيك المشاعر بأسلوب فنى رائع يكتب فى سجل الفن الأصيل عبر القرون والأزمان.

لذا فقد برع كثير من الشعراء فى وصف الناقة وصفا يتناسب مع مكانتها ومنزلتها من نفوسهم، فهذا "طرفة بن العبد" يصف ناقته فى معلقته, فلم يترك شيئا من أوصافها الحسية إلا وفاه بدقة وحسن أداء, ولا من ضروب سيرها نوعا إلا أجراه فى لباقة وذكاء, وذلك فيما يقرب من ثلاثين بيتا من معلقته التى مطلعها : (٢)

---

(١) الغاشية ١٧ .

(٢) شرح القصائد للعشر للتبرزى – مؤسسة المعارف – بيروت ٧٥:٦٤ .

لخولـــة أطـــلال ببرقـــة ثـــــهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

ثم يقول فى وصف الناقة من البيت الحادى عشر وحتى البيت التاســـع والثلاثين :

وإنى لأمضى الهم عند احتضـــاره بعوجاء مرقال تروح وتغتـــدى(١)

أمون كـــألـــواح الإران نســـــأتها على لا حب كأنه ظـــهر برجد(٢)

تبارى عتاقاً ناجـــيـــات وأتبعـــت وظيفا وظيفا فوق مور معبد (٣)

تربعت القفيـــن بالشـــول ترتقـــى حدائق مـــــولى الأسرة أغيـد(٤)

تريع إلى صـــوت المهيب وتتقـــى بذى خصل روعات أكلف ملبد(٥)

---

(١) العوجاء: الناقة النشيطة لا تستقيم فى سيرها، مرقال: ســـريعة - تـــروح وتغتـــدى: يستوى عندها سير الليل والنهار.

(٢) أمون: مأمونة العثار - الإران: التابوت - نسأتها: ضربتـــها بالمنســـأة - لا حـــب: طريق واضح - برجد: كساء مخطط

(٣) تبارى: تسابق - عتاقا: جمع عتيقة كرائم الإبل - ناجيات: جمع ناجية ســـريعات - الوظيف: عظم الساق - المور المعبد: الطريق الممهده.

(٤) تربعت: رعت الربيع، القفين: مثنى قف وهو الأرض المرتفع، الشول: الإبل شـــالت ضروعها، المولى: الذى توالى عليه المطر، للأسرة: مفردها سرارة وهـــى بطـــون الأودية، الأغيد: الناعم من كل شئ.

(٥) تريع: ترجع، المهيب: الراعى يهيب بها ويدعوها، بذى خصل: بذيل كثيف الوبـــر، الروعات : الافزاعات ، أكلف : أحمر ضـــارب إلـــى الســـواد ، الملبـــد: المتلبـــد وبره.

ويستمر الشاعر فى وصف ناقته على هذا النحو إلى أن يقول :

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوى من القد محصد[1]
وأعلم مخروت من الأنف مارن عتيق متى ترجم به الأرض تزدد[2]
على مثلها أمضى إذا قال صاحبى ألا ليتنى أفيدك منها وأفتدى[3]

هذا وقد ظفرت الناقة بعناية كبيرة من شعراء كثيرين فى العصر الجاهلى مثل أمرؤ القيس, ولبيد, والأعشى, وعنترة[4] وغيرهم, فقد وصفوها بما يتناسب ومكانتها وحاجتهم إليها, واعتزازهم بها,فمنهم من شبهها بالثور الوحشى فى سرعته وقوته, وقد وقف الصائد يتربص به لكنه فرّمنه ونجا, ليجعل ذلك شبها لسرعة ناقته وخفتها, ومن ذلك قول (ربيعه بن مقروم الضبى) :[5]

---

(١) الإرقال : ضرب من السير السريع ، الملوى : وصف للسوط، القد : الجلد ، المحصد : المحكم.

(٢) الأعلم : وصف للمشفر ، والعلم : الشق فى الشفه العليا ، وضده الفلج ، وهو شق فى الشفة السفلى ، المخروت : المشقوق .

(٣) منها: الضمير يعود على الفلاة الموحشة المخيفة .

(٤) أنظر معلقات هؤلاء الشعراء ففيها أوصاف كثيرة ورائعة للناقة، وكذلك لا تخلوا دواوينهم وأشعارهم الأخرى غير المعلقات من أوصاف الناقة تبرز مكانتها فى نفوسهم وتبين مدى حبهم لها.

(٥) دراسات فى الأدب ونصوص العصر الجاهلى- د. محمد عبد القادر أحمد ط١/١٩٨٣ – مكتبة النهضة المصرية ص ٢٢٦ .

فعديــــت أدمـــــاء عيرانـــــة عذافــرة لا تمـــل الرســـيما[1]
كـــأنى أوشـــــح أنســـاعها أقب من الحقب جأبـا شـــتيما[2]
يحلـــئ مثــــل القنـــا ذبـــلا ثلاثا عن الورد قد كن هيـمـــا[3]
وبالمـــاء قيـــس أبـــو عــامر يؤملها ساعة ان تصـــــوما[4]
وبالكـــــف زوراء حرميـــــة من القضب تعقب عزفـا نئيمـــا[5]
وأعجف حشـــر تـــرى بالرصـاف مما يخالط منــها عصيـمــــا[6]
فاخطأهـــا فمضـــت كـــلها تكاد من الذعر تفرى الأديمـــا[7]

(١) عديت : اخترت ، أدماء : بيضاء أراد ناقة ، عيرانه : تشـــبه العـــير لصلابتــــها ، عذافرة : ضخمة ، الرسيم : ضرب من السير.

(٢) أوشح: أشد، الإنساع: سيور عراض تشد بها الرحال، أقب: ضامر، الحقـــب: جمـــع أحقب وهو الحمار الوحشى الذى فى بطنه بياض، الجأب: الغليظ، الشـــتيم: الكريـــه الوجه.

(٣) يحلئ : أى الحمار، والتحلئة: المنع من الماء، مثل القنا: شبه الأتـــن الوحشـــية فـــى صلابتها أو طولها بالقنا، الذبل: الضوامر، الورد: إتيان الماء، الهيم العطاش وجمعها هيماء.

(٤) أبو عامر: القانص، يؤملها ساعة: يتسنى أن تقف ساعة فيرميها، الصيام: القيام.

(٥) الزوراء: القوس، حرميه: منسوبة إلى الحرم على غير قياس، من القضب: صنعـــت من النصل، العزف: صوتها، النئيم: صوت القوس.

(٦) الأعجف : السهم ، الحشر: الدقيق، الرصاف: أسفل من مدخل النصل فى الســــهم . العصيم أثر الدم.

(٧) تفردى الأديم: تشق الجلد وتقطعه .

أما الحيوان الآخر الذى استحوذ على كثير من الأوصاف فى الشـــعر الجاهلى فهو الفرس, فقد شغف العربى به إذ وجد فيه صديقا حميما, ينجـــده فى الشدة ويسعده فى الرخاء, كما أنه كان عدته فى الحرب, لذا "أعز العـوب الخيل, وحدبوا عليها, وباهوا بها, لأنهم كانوا يركبونها للصيد, وللرياضـــة, وفى الأسفار الدانية. وكانوا يمتطونها فى كرهم وفرهم، وقد عرفوا بتجربتهم الطويلة أن الخيل أنفع فى المعركة من الإبل، فكانوا فى طريقهم إلى المعركة يركبون الإبل, ويقودون الخيل ليريحوها, فإذا قربوا من عدوهم نزلـوا مـن الإبل وامتطوا الخيل لأنها أكثر عونا, وأسرع حركة"(١)

هذا بالإضافة إلى أن الخيل كانت وسيلة من وسائل الصيد, التى اعتمد عليها العربى فى العصر الجاهلى, لذا استطاع الشعراء أن يعبروا فى صـدق عن حبهم للخيل, وإعزازهم لها من خلال أشعار ذات قيمة فنية رائعة, لدرجة أن بعض الشعراء اشتهر بوصف الخيل أمثال: طفيـــل الغنـــوى , والنابغـــة الجعدى وأبو داود الأيادى, وقد أطلق القدماء على طفيل "طفيل الخيل" لكـثرة وصفه لها, فلم يترك "طفيل" فى الجواد عضوا إلا وصفه, فوصفه من الرأس إلى الذنب وأحسن فى الوصف وأجاد, وكانت المعانى تدور حول التفنن فـــى نعتها, والثناء عليها والإفراط فى حبها والإكثار من ذكرها, ومن ذلك قولـــه فى قصيدة له: (٢)

---

(١) أغانى الطبيعة فـــى الشـــعر الجـــاهلى د/ أحمـــد الحوفـــى ط١ ، ١٩٥٨ القـــاهرة ص ٩٠ .

(٢) ديوانه ١٧-٣٦ نقلاً عن كتاب دراسات فى أدب ونصوص العصـــر الجـــاهلى، د. محمد عبد القادر أحمد ص ٢١٧.

وفينـــا ربـــاط الخيـــل كـــل مطـــهم رجيل كسرحان الغضـــا المتســـاوب[1]

تنيف إذا قورت من القود وانطـــوت بهاد رفـــيع يقهر الخيـــل صلـــهب[2]

وعوج كأحناء السراء مطـــت بـــها مطارد تهديـــها اســـنة قعـــضب[3]

إذا قيل نهنهـــها وقـــد جـــد جدهـــا ترامت كخذروف الوليد المثـــــقب[4]

ورادا وحـــوا مشـــرفا حجباتـــــها بنـــات حصان قد تعولم منـــــجب[5]

وكمتـــا مدمـــاة كـــــأن متونـــــها جرى فوقها واستشعرت لون مذهب[6]

تبـــارى مراخيـــها الزجـــاج كأنـــها ضراء أحست نبأة مـــــن مكلـــب[7]

---

(١) رباط: من المرابطة والإقامة، يريد: عندنا جماعات الخيول المقيمة، المطهم: المحسن التام، رجيل: شديد الحافر، السرحان: الذئب، المتأوب: العائد.

(٢) تنيف: تشرف، اقورت: ضمرت، بهاد: بعنق، الرفيـــع: المرتفـــع، يقـــهر: يســـبق، الصلهب: الطويل.

(٣) عوج: يعنى أضلاعا، السراء: شجر يتخذ منه القسى، مطت بها: مدت ونهضت بـــها، المطارد: الرماح القصار وهنا كناية عن الأعناق، تهديها: تقدمها وتكون هوادى لـــها، قعضب: رجل كان يعمل الأسنة فى الجاهلية.

(٤) نهنهها: أكففها، جد جدها: عزم جريها، ترامت: تتابعت، الخذروف: الخرارة التـــى يلعب بها الصبى.

(٥) ورادا: حمرا، حوا: شديدة الحمرة، الحجبة: رأس الورك، تعولـــم: عـــرف وعلـــم، منجب: كريم.

(٦) الكمت: الخيل الصلبة الجكود والحوافر، وقيل ذات اللون الأحمـــر، المدمـــاة: التـــى تضرب كمتتها إلى الحمرة، المتن: الظهر، الاستشعار: الاستشراب.

(٧) تبارى: تسابق، المراخى: جمع مرخاة وهى السهلة العـــدو ويقصـــد هنـــا الأعنـــاق الطويلة، الزجاج: الأسنة، الضراء: الكلاب المعودة على الصيد، النبـــأة: الصـــوت، المكلب: صاحب الكلب.

من الغزو واقــورت كــأن متونــها   زحاليف ولدان عفت بعــد ملعـب[١]

ويستمر فى وصف الخيل بهذه الطريقة التى تشير إلى اعــتزازه بــها وعنايته الفائقة بها إلى أن يقول :

معرقــة الألحــى تلــوح متونــها   تشير القطافى فى منقل بعد مقـوب[٢]

طوامح بالطرف الظراب إذا بــدت   محجلة الأيــدى دمــا بــالمخضب[٣]

وللخيل أيام ممــن يصطــبر لــها   ويعرف لهــا أيامها الخير تعقــب

النماذج كثيرة فى هذا المجال وبخاصة فى وصف الناقة والفرس, حيث إنهما كانا يمثلان عدتهم فى الحياة, فالناقة للسفر, والترحال, والفرس للحـوب والصيد والسفر القصير, لذا فقد نالا اهتمام الشعراء أكثر من غيرهمــا مــن صنوف الحيوان الأخرى, فقد أجاد امرؤ القيس فى وصف فرســـه. كذلــك عنترة بن شداد, وسلمه بن الخرشب, وعوف بن عطية والمرقش الأصغـــر, وغيرهم من الشعراء , كما أجادوا كذلك وبالدرجة نفسها ـــ فــى وصــف الناقة.[٤]

---

(١) اقورت : ضمرت ، الزحاليف : واحدها زحلوفة ، وهى آثار تزلج الصبيان ، عفت : درست.

(٢) معرفة الألحى: قليلة لحم الوجوه، القطا: نوع من الطيور،المنقل:الطريق فى الجبــل، المقرب: موضع الطريق القريب.

(٣) طوامح: ناظرات، المخضب: موضع الخضاب.

(٤) أنظر شرح القصائد العشر، فلا تخلو قصيدة منها من وصف الفرس والناقة بالإضافة إلى وصف الرحلة وما فيها من مطاردة للوحوش وغيرها من حيــوان الصحــراء، وكان هذا يعد تقليداً فنياً فى نظم القصيدة لدى الجاهلين..

هذا وقد وصف الشاعر الجاهلى صنوفاً أخرى من الحيوان, وخاصة من الأوابد مثل: الثور الوحشى, وحمار الوحش وأتنه, والظليم والنعامة, وكلب الصيد.(١)

وقد أمدتنا المصادر بشعر تمخض لوصف الذئب و الأسد، من ذلك قول "الشنفرى الأزدى" فى لاميته يصف الذئاب (٢):

وأغدوا على القوت الزهيد كما غدا أزل تها داه التنائف أطحل(٣)

غدا طاويا يعارض الريح ها فيا يخوت بأذناب الشعاب ويعسل(٤)

فلما لواه القوت من حيث أمه دعا فأجابته نظائر نحل(٥)

مهلهلة شيب الوجوه كأنها قداح بكفى ياسر تتقلقل(٦)

---

(١) أنظر شعر الطبيعة فى الأدب العربى، د. سيد نوفل ط٢، دار المعارف ص ٤٥.

(٢) بلوغ الأرب فى شرح لامية العرب، لمجموعة من الشراح، جمع وتحقيق محمد عبد الحكيم القاضى، محمد عبد الرازق عرفان، دار الحديث ١٩٨٩ ص ١٥٩:١٢٩.

(٣) الأزل: القليل لحم الوركين، تهاداه:تتدافعه، التنائف: جمع تنوفه وهى الفلاة – الأطحل: الذئب فى بياضه غبرة

(٤) طاويا:خميصاجائعا،هافيا:مسرعا،يخوت:ينقض،الشعاب:جمع شعب–وهى المنحنيلت فى الجبال،يعسل:يسرع باهتزاز

(٥) لواه القوت: أماله البحث عن الطعام وأعجزه – أمه: قصده – دعا: عوى – نظائر: جمع نظير أنداد – نحل: جمع ناحل الهزيل.

(٦) مهلهلة: فليلة اللحم – شيب الوجوه: كناية عن بياضها – الياسر: اللاعب بسهام الميسر يحركها بين يديه وقداح الميسر سهامها ، مفردها قدح ، وهو أيضا للسهم قبل أن يراش.

أو الخشرم المبعوث حثحث دبـــــره محابيض أراداهن ســــام معسـل[1]

مهرتـــــه فــوه كــان شدوقـــــها شقوق العصى كالحـــات وبسـل[2]

فضــج وضجــت بـالبراح كأنـــها وإياه نـــوح فـوق علياء ثكـل[3]

وأغضى وأغضت وأتسى وأتسى بـه مراميل عــزاها وعزتـــه مرمـل[4]

شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمـل[5]

والأبيات كما نرى فى غاية الروعة والتصوير, إذ اســتطاع الشــاعر بموهبته الفذة أن يرسم صورة ومشهدا يخاله القارئ أمام عينيه صورة حية.

كما ورد وصف الأسد رمزا للقوة والفتك ومن ذلك قول "عــروة بــن الورد العبسى" يصف أسدا[6]:

تتبعـــانى الأعــداء إمــا إلـــى دم وإما عراض الســاعدين مصــدرا[7]

(١) الخشرم: رئيس النحل – المبعوث: المنبعث للسير – حثحث: حـث وحـض – الدبـر: جماعة النحل – المحابيض: جمع محبض وهى عيدان يتخذها مشتار العسل فيثـير بـها النحل – أرادهن: مخفف أردأهن أى ثبتهن وركزهن – سها: رجل عل مرتق – معسـل: مشتار العسل فيثير بها النحل. أرداهن: مخفف أرداهن أى ثبتهن وركزهن.

(٢) مهرته:مشقوقة الأفواه،فوه:جمع أفواه المفتوح الفم،كالحات:عابسات الوجوه،البسل:جمـع باسل (الكريه المنظر).

(٣) البراح: الأرض الواسعة لا نبت فيها – نوح: جمع نائحة باكيات صائحات – ثكل: جمـع ثاكل – وهى الفاقدات الأولاد.

(٤) اتسى: امتثل واقتفى – مراميل: جمع مرمل ، وهو الذى لا زاد معه – عزاها: سلاها – وأصل التركيب: عزاها مرمل ، وعزته مراميل.

(٥) ارعوى: رجع – الشكو: الشكوى – أجمل: أحسن وأفضل.

(٦) الوصف فى الشعر العربى – ١ / ٢١٤

(١) إما إلى دم : إما إلى قوم أصبتهم بدم، فلهم عندى ثأر – عراض الســاعدين: عريـض الساعدين، وهى كناية عن موصوف هو الأسد – المصدر: من نعوت الأســد العريـض الصدر.

يظل الأباء ساقطا فـــوق متنـــه   له العدوة الأولى إذا القرن أصحـوا[1]
كـأن خـوات الرعـد رزء زئـيره   من اللاء يسـكن العريـن بعـثرا[2]

والمتصفح للشعر الجاهلى يجد أوصافا كثيرة لأنواع من الحيوان غير ما ذكرنا, فضلا عن الطيور والعقبان والزواحف والحشرات, ولعل ظـروف البيئة أسهمت كثيرا فى ظهور هذا النوع من الشعر[3]. بيد أن هذه النمـاذج اتسمت بسمتين:

الأولى : أنها لم تأخذ طابع الاستقلالية فى النظم, بمعنى أنه لم تكن فى قصائد مستقلة بذاتها لكنها وردت فى ثنايا أغراض أخرى, ويرجع ذلك إلـى التقليد الفنى الذى كان متبعا فى بناء القصيدة العربيـة فـى العصـر الجاهلى, إذ كانت القصيدة تبدأ بالوقوف على الأطلال ومنازل الأحبـة, ثم وصف الرحلة وما فيها من عناء ومشقة, وما لاقاه الشـاعر مـن أهوال وفظائع, وما رأى ما فيها من حيـوان الصحـراء, ولا ينسـى الشاعر أن يصف فى مقدمة قصيدته ناقته التى تحمله أو فرسه الـذى يقله ثم يدخل إلى غرضه الذى ينشده ويقصده أى أن وصف الحيـوان كان يأتى فى القصيدة الجاهلية عرضا فى ثنايا الأغراض الأخرى مـن مدح وغزل وهجاء وفخر إلى غير ذلك.

---

(١) الإباء : القصب واحدته إباءة، المتن: الظهر، العدوة الأولى: الوثبـة الأولـى، القـرن: النظير، أصحر: خرج إلى الصحراء للمبارزة.

(٢) الخوات : الصوت والدوى، الرزء: بضم الراء وكسرها: المصيبة، العرين: بيت الأسـد فى الأجمة، عثر: مأسدة قبل تبالة.

(٣) أنظر هذه النماذج فى: الصيد والطرد فى الشعر العربى د. عباس مصطفى الصـالحى، والوصف فى الشعر العربى ج ١ ، وشعر الطبيعة فى الأدب العربى د. سيد نوفل.

الثانية : أن أكثر الصور التى أوردها الشعراء الجاهليون فى وصف الحيوان, صور حسية, اعتمد فيها قائلوها على الصورة الخارجية للحيوان, وذلك بوصف سرعته أو قوته أو نحافته وضعفه, كما ورد فى وصف "الشنفرى" للذئاب. إلى غير ذلك من الصفات الحسية. أما الاندماج الشعوى والباطنى والإحساس المرهف بالحيوان فهو قليل فى تلك الصور , ذلك "أن كثرتهم كانت تعتمد على حواسهم أكثر مما تعتمد على إحساسهم الباطنى, وشعورهم الداخلى إلا فى الرثاء فالعاطفة فيه متحكمة[1]" .

(ب) العصران الإسلامى والأموى*:

أحدثت دعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – انقلابا فى حياة العرب على كل المستويات السياسية والاجتماعية والروحية, فقد ظهرت تعاليم الإسلام وقيمه على من اعتنقوه فى تهذيب نفوسهم, وإصلاح أوضاعهم الاجتماعية . أما الذين لم يهتدوا بهدى الإسلام وقيمه فقد انبروا يحاربون الدعوة بوسائل عدة من أهمها نهوض شعرائهم بهجاء المسلمين, والتشهير بالرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه. ولم يكن بد لشعراء المسلمين من رد العدوان عن النبى وعن أنفسهم, بالطريقة نفسها , والتى تعتمد على ذكر الوقائع والمثالب والأنساب ومما يعده المشركون حقا هجاء, إذ لم يعد من

---

(١) الوصف فى الشعر العربى ١ / ٢١٩ .

* درج بعض النقاد على إطلاق مصطلح العصر الإسلامى على الفترة من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وحتى نهاية الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ ، لكننا نعنى هنا بالعصر الإسلامى فترة البعثة وحتى قيام الدولة الأموية سنة ٤٠هـ.

المجدى أن يهجوهم بكفرهم وتمسكهم بتقديس أصنامهم, فهى محل فخرهـــم وموطن اعتزازهم.

هذا بالإضافة إلى أن شعراء الرسول أخذوا يمدحونه صلى الله عليـــه وسلم, وينافحون عنه وعن الرسالة والمسلمين, وكانوا فى كل ذلك سواء فـــى هجائهم أو مدحهم يمهدون بأوصاف للطبيعة على طريقتـــهم لكـــن التطـــور الزمنى قد جعل الأوصاف الطبيعية أشد اقتضابا وجمودا(١).

ولعل المعنى بالجمود هنا تقليد شعراء الإسلام لشعراء الجاهليـــة فـــى ابتداء قصائدهم بالوقوف على الأطلال ووصف الرحلة والناقة إلى غير ذلـــك من النمط الذى كان يسير عليه شعراء الجاهلية, وقد أشرنا من قبل إلـــى أن طبيعة الحياة فى العصر الجاهلى كانت أحد العوامل التى أسهمت فـــى هـــذا البناء الفنى للقصيدة, والتى اتخذ فيما بعد تقليدا فنيا, لكـــن لـــو أن شـــعراء الإسلام تخلصوا من هذا الجمود وذلك التقليد, وأفادوا من التوجيـــه القرآنـــى نحو الطبيعة, لما وقفوا على هذا المنهج, ولكان لهم باع طويلة وخاصة فـــى وصف الطبيعة بكل مظاهرها المتحركة والصامتة, لكنهم آثروا هذا التقليـــد الفنى.

وبالرغم من ذلك , فإن الرسول صلى الله عليه وسلم: لم يرفض هـــذا التقليد الفنى, بل أقره حينما استمع إلى كعب بن زهير وهو ينشـــد قصيدتـــه (بانت سعاد) التى ذكر فى مقدمتها أحاديثه عن الحب والرحيل ثم عرج على وصف الناقة وما ينبغى أن تكون عليه من السرعة والقوة, كى يصل بها إلى ديار محبوبته, ثم وصل إلى غرضه الأصيل وهو مدح النبـــى وأصحابـــه ,

---

(١) أنظر شعر الطبيعة فى الأدب العربى، د. سيد نوفل ط ٢ دار المعارف ١٩٧٨،ص ١١٦.

ومن أقواله فى وصف الناقة , ذلك الحيوان الذى كان يحتل مكانة كبيرة عند العرب لما أسلفنا من أسباب :

أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق النجيات المراسيل

ولن يبلغها إلا عذافرة فيها على الأين إرقال وتبغيل

وفى وصف الصحابة يشبههم بالجمال الزهر, أى خالصة اللون الأبيض عتيقة كريمة فيقول [1] :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

الجدير بالذكر هنا أن ذكر الحيوان والطبيعة كلها جاء عرضا فى مقدمة القصائد بصورة قليلة, فضلا عن جمودها وتقليدها فى الألفاظ والمعانى لصور الجاهليين, ولم يكن الرسول ولا الدعوة سببا فى الجمود الشعرى, وإنما كان تطورا طبيعيا لما انتهى إليه العصر الجاهلى, وآية ذلك أن الشعراء حين اتصلوا بالدين اصطنعوا أساليب قديمة ولم يجددوا حسب مقتضى الحياة الإسلامية[2].

وقد وجدنا صورا للحيوان فى أشعار بعض الشعراء مثل الحطيئة وبخاصة وصف الناقة وما تمتاز به من الصبر على التعب وعدم الشكوى, وسرعتها وسبقها النياق, كما وصف الغزال حين يرعى الشجر والنبت فى الصيف والربيع. وكل ذلك جاء فى مقدمة القصيدة التى قالها يستعطف بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليفك أسره. وهى فى مجملها صورة من الشعر الجاهلى من حيث الألفاظ والمعانى.

---

(١) طبقات تحول الشعراء،محمد بن سلام الجمحى ، شرح محمود شاكر ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠١ م ط/١٠٢ .

(٢) أنظر شعر الطبيعة فى الأدب العربى ١١٨.

كما كانوا يستخدمون الحيوان فى تشبيهاتهم, ومن ذلك قول "حسـان" يشبه اتساع الطعنات وبشاعتها . بأفواه إبل قلصت مشـافرها مـن رعـى الأراك[١]:

دعوا فلجات الشام ، قد حال دونـها جلاد كأفواه المخـاض الأوراك[٢]

وهكذا كان ذكر الحيوان بهذه الصورة التقليدية الجامدة .

فإذا انتقلنا إلى العصر الأموى نرى أن الشعراء مضوا على سنة آبائهم فى العصر الجاهلى فأخذوا يستلهمون صحراءهم, مزواجين على شـاكلتهم بين الحب الطبيعة وحب المرأة, إذ يفتتح الشاعر – غالبا – مطولاته بوصف أطلال الديار التى قضى بها شبابه مع بعض صواحبه, ويسترسل فى الحديث عن ذكريات حبه. ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته فى الصحراء, وما قطـع فيها من مفاوز على ناقته التي يسهب في وصفها لما لها من جمال ومكانـة في نفسه, كما يسهب في وصف فرسه إن كان فارسا, وهو فى ثنايـا ذلـك يحدثنا عن كل ما تقع عليه عينه في صحرائه ويخلف أثرا في ذهنه من طير وحيوان فى الأرض ونجوم وكواكب فى السماء[٣].

هذا بالإضافة إلى تصوير البيئة الجديدة التى تطـورت فـى العصـر الأموى, بفضل ما حف بها من أشجار فاكهة وزروع مختلفة, فضلا عـن أن الشعراء كانوا يلهجون بالصيد وكلابه وصقوره وفهوده, مع تعرض طائفـة منهم لوصف الفيل مثل قوله رؤبة :

---

(١) حلقات فحول الشعراء ٢٤٨/١ .

(٢) المخاض: النوق الحوامل ، ليس لها واحد من لفظها. الأوراك جمـع آركـة ، والإبـل الأوراك التى ترعى الآراك .

(٣) أنظر العصر الإسلامى – د. شوقى ضنيف ط ٩ دار المعارف ١٩٨١ ص ٣٨٦ .

أجرد كـــالحصن طويـل النـــابين　　مشرف اللحـــى صغـير الفقمين

عليه أذنان كفضل الثوبين

ولها رون بن موسى مولى الأزد قصيدة فى وصـــف خروجـه فـى الحرب إلى فيل, وانتصاره عليه(١).

ولم يقتصر الشعراء على وصف حيوان الصيــد أو طيـوره, لكنـهم تطرقوا إلى وصف الأوابد من الحيوان مثل الذئب, ومن ذلك قول الفـــرزدق يصف ذئبا, ويظهر فى هذا الوصف, معنى الود للحيوان المفترس(٢):

وليلة بـــتنا بالغـــريين ضافنـــا　　على الزاد ممشوق الذراعين أطلس

تلمســنا حتـــى أتانـــا ولـم يـزل　　لـــدن فطمتـــه أمــــه يتلمـــس

ولو أنـــه إذ جاءنـــا كـــان دانيـــا　　لألبســـته لـــو انـــه كـــان يلبـــس

ولكن تنحـــى جنبـــه بعـــد مادنـــا　　فكان كـقيد الرمح بل هو أنفـــس

فقاسمته نصفيـــن بينـــى وبينـــه　　بقيـــة زادى والركـــايب نـــعس

وكان ابن ليلى إذ قرى الذئـب زاده　　على طارق الظـــلماء لا يتعبـــس

وله قصيدة أخرى فى وصف ذئب خرج عليه وهـــو فـــى نفـــر مـــن أصحابه, وكان معهم شاة مسلوخة فأعطاه بعضها فأكله ثم عاد فأعطاه جزءا آخر فأكله ثم ولى(٣).

---

(١) أنظر القصيدة فى الحيوان ٧ / ١١٤ .

(٢) ديوان الفرزدق ، دار صادر بيروت ١ / ٣٨٧ .

(٣) أنظر القصيدة فى ديوانه ٢/٣٢٩ – ٣٣٢ .

وهذا التصوير لم يكن إتجاها فنيا أو غرضا شعريا لـــدى الفــرزدق ، لكنه لا يعدو ذكرا لحادثة عابرة مرت به, كما أنه لا يمثـــل فتنـــة الشـــاعر بالذئب, لكنه – كما قلنا – موقف مرّ به فسجله بقريحته وشاعريته.

لكننا لا ينبغى – ونحن نتحدث عن الحيوان فى الشعر الأمـــوى – أن ننسى شاعر الصحراء, ذا الرمة, ذلك الشاعر الذى اتخذ من الطبيعـــة بكـــل مظاهرها مادة خصبة لرسم لوحاته وصوره الرائعة التى تنم عـــن مداخلـــه حقيقية فى مظاهر الطبيعة, ومعايشة صادقة بالمشـــاعر والأحاســيس مـــع الحيوانات والطيور , فهو " **لم يكد يترك شـــيئا رآه دون أن يقـــف عنـــده ليصفه فى دقة تلفت النظر وتنتزع الإعجاب بما فيها مـــن خـــبرة عميقـــة وصادقة بحياته وطباعه, بل بمشاعره وعواطفه الداخلية**"(١) .

وهذه إحدى الصور التى تدل على تلاحم الشاعر بعواطفه ومشـــاعره مع الحيوان, فحين يصف الظبية مع خشـــفها الصغـــير, لا ينســـى الحنـــان والعطف الذى يملأ نفسها, ولا الإشفاق الذى تحمله بين ضلوعها خوفا علـــى ولدها من الأخطار المحدقة به وهو لا يعرفها, يقول ذو الرمة مصورا هـــذا المنظر(٢) :

كأنها أم ساجى الطـــرف أخدرهـــا مســـتودع خمر الوعســـاء مرخـــوم
تنفى الطوارف عنه دعصتـــا بقـــر ويـــافع مـــن فرنداديـــن ملمـــوم(٣)
كأنه بالضحى ترمى الصعيـــد بـــه دبابة فى عظـــام الـــرأس خرطـــوم

---

(١) ذو الرمة : شاعر الحب والصحراء، د. يوسف خليف ، دار المعارف ١٩٧٠ ، ص١٦٩ .

(٢) السابق ١٦٩ .

(٣) الطوارف :العيون، الدعصة:الرملة، بقر : موضع، اليافع:المرتفع، الفرنداد:شجر أو رملـــة مشرفة على ما حولها من رمال.

لا ينعش الطـرف إلا مـا تخونــه   داع يناديه باســم المــاء مبغـوم[1]
كأنــه دملـج مــن فضــة نبــه   في ملعب من عذارى الحى مفصوم[2]
أو مزنة فارق يجلــو غواربــها   تبوج الــبرق والظلمــاء علجــوم[3]

وقد استطاع "ذو الرمة" أن يصف كل ما وقعت عليه عيناه من حيـوان أو طير فى صورة واضحة المعالم, تدل علــى تعمقــة وإحساســه القــوى ومشاعره الصادقة, وفى ذلك يقول الدكتور "شــوقى صنــف"[4] : "**وصـف الحيوان إذن فى ديوان ذى الرمة حديث نفس قبل أن يكون حديــث حــس, حديث نفس الحيوان وحديث نفس ذى الرمة. وفى هذا الحديث يفيــض ذو الرمة فى بيان المشاعر والعواطف, فهو عن النفس الباطنة يصدر, لا عين العين الظاهرة**" .

وكيفما كان الحال فإن الحيوان بكل أنواعه قد نال اهتماما كبيرا لــدى الشعراء فى العصر الأموى, ولعل من الصواب أن نشير إلى أن بيئات الشعر المختلفة كان لها دور كبير فى اتجاه بعض الشعراء – كذى الرمــة – إلــى وصف الحيوان والطير والزواحف, ورسم صور رائعــة التنسـيق مليئــة بالمشاعر والأحاسيس.

لكن ينبغى أن نشير كذلك إلى أن معظم الأوصاف كانت حسية إلا فــى القليل كما رأينا عند ذى الرمة, وبالرغم من ذلك فإن أوصاف الحيوان فــى

(١) تخونه: تعهده ، الماء: حكاية صوت الظبية.

(٢) نبه: منسى .

(٣) الغارق: المنفرد ، تبوج البرق: لمعانه ، العلجوم: الشديدة السواد.

(٤) التطور والتحديد فى الشعر الأموى، د. شوقى ضيف، ط ٨، دار المعـارف ١٩٨١ ، ص ٢٥٦ .

العصر الأموى تعد متطورة عنها فى العصر الإسلامى, بالرغم من تشابهها فى الكثير مع أوصاف الشعراء الجاهلية.

(ج) العصر العباسى :

ويأتى العصر العباسى, فتتطور الحياة الاجتماعية والسياسية, والثقافية ويسير الشعر مع هذه الحيوات سيرا وثيقا بما يتناسب وألوان الحضارة الجديدة. وكان شعر الطبيعة أكثر ألوان الشعر, انتشارا وتعبيرا عن صورة العصر وما حدث فيها من تطور.

فقد ظل الشعراء يعالجون موضوعات الطبيعة وبخاصة وصف الحيوان بكل أنواعه, والطيور والحشرات. لكن بصورة متطورة, تختلف من ناحية الموضوع عما كانت عليه فى أشعار السابقين, ومن ذلك قول "أبى نواس" فى أرجوزته يصف كلبه بالشجاعة والخفة والفتك والمهارة والبراعة فى الصيد[١]:

لما تبدى الصبح من حجابه   كطلعته الأشمط من جلبابه[٢]
وانعدل الليل إلى مآربه   كالحبشى أفتر عن أنيابه
هجنا بكلب طالما هجنا به   ينتسف المقود من كلابه
من صرخ يغلو إذا اغلولى به   وميعة تغلب من شبابه[٣]
كأن متنيه لدى انسلابه   متنا شجاع لج فى انسيابه[٤]

(١) ديوانه تحقيق وضبط وشرح أحمد عبد المجيد الغزالى، دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٨٤، ص ٦٣١ .

(٢) الأشمط: من الشمط وهو بياض الرأس يخالط سواده.

(٣) يغلو : يجاوز الحد ، اغلولى: النف ، ميعة الشباب: أوله.

(٤) الشجاع : الثعبان .

كأنما الأظفور في قنابه موسى صناع رد في أنصابه [١]

تراه في الحضر إذا أهاها به يكاد أن يخرج من إهابه [٢]

وقد برع هذا الشاعر فى وصف الحيوانات الأليفة وغير الأليفة والطيور فى قصائد مستقلة , تمتاز بالروعة فى التصوير , والسهولة فى التعبير , بالإضافة إلى الجزالة والقوة فى الألفاظ والتراكيب [٣].

ولم يكن أبو نواس وحيدا فى هذا الاتجاه وإنما تابعة شعراء كثيرون اهتموا بوصف الحيوان فى قصائد مستقلة كذلك, لكن الطريف انهم كانوا يبدعون تلك القصائد بالوقوف على الأطلال وديار المحبوبة وظعنهم منها وما تركه فى نفسه من لوعة وأسى على فراق المحبوبة, ثم يدخل إلى الحيوان الذى يريد وصفه ومن ذلك قول البحترى يصف ذئبا لقيه, فبعد ان قدم لذلك بالطريقة المشار إليها نشأ يصف الذئب قائلا: [٤]

وأطلس ملء العين يحمل زوره وأضلاعه من جانبيه شوى نهد [٥]

له ذنب مثل الرشاء يجره ومتن كمتن القوس أعوج منأد [٦]

طواه الطوى حتى استمر مريره فما فيه إلا العظم والروح والجلد [٧]

(١) الأظفور بالضم: الظفر ، وقناب الظفر: الصدع الذى يرجع.

(٢) الحضر بضم الحاء: شدة العدو ، هاهابه: زجره ، إهابه: جلده.

(٣) أنظر قصائده فى الديوان من ص ٦٢٥ : ٦٧١ .

(٤) ديوان البحترى ، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ١٩٨٣ ، ١/١٩٦ .

(٥) الزور: وسط الصدر ، الشوى: اليدان والرجلان ، النهد : المرتفع.

(٦) الرشاء: الحبل ، منأد: منحن.

(٧) استمر مريره: استحكمت عزيمته ، وقويت شكيمته ، أى زاده الجوع ضراوة.

يقضقض عصلا فى أسرتها الـودى كقضقضة المقرور, أرعده الـــبرد [1]

وقد توسع الشعراء العباسيون فى وصف الحيوانـــات بكـــل أنواعـــها, وكذلك الطيور والحشرات واشتهر بذلك "خلف الأحمر", و "جهم بن خلـــف" وفى كتاب الحيوان للجاحظ أمثلة ونماذج فى وصف الحمام, والحيات لـــهذين الشاعرين[2].

ومع تطور الحياة فى العصر العباسى وازدهارها ورقيـــها تطـــورت أغراض الشعر وكان للحيوان نصيب كبير من هذا التطور, واحتـــل مكانـــة سامقة فى نفوس الشعراء,فقد احتل الحيوان مكانة كبيرة فى غرض الرثـــاء, فما من حيوان يموت إلا رثاه صاحبه بعاطفة جياشة وكأنه يرثـــى شـــخصا أثيرا لديه, ولعل هذا هو الجديد الذى طرأ على مكانة الحيوان فى الشعر لدى العباسيين, ومن النماذج الكاشفة والدالة على ذلك قصيدة (رثاء كلب) لأبـــى نواس يرثى فيها كلبا كان عزيزا عليه لسعته حية فيقول[3]:

يـــا بـــؤس كلبـــى ســـيد الكـــلاب قـــد كـــان أغنـــانى عـــن العقـــاب
وكان قد أجزى عـــــن القصـــاب وعـــن شـــــراء الجلـــب الجـــلاب
يا عين جودى لى على حـــــلاب من للظبـــاء العفـــــر والـــــذئاب

إلى أن يقول واصفا كيف لسعته الحية :

فبينـــمـــا نحن بـــه فـــى الغـــاب إذ بـــــــرزت كالحـــــة الأنيـــــاب

---

(١) يقضقض : يكسر العظام فيخرج لها صوت ، العصل: الأنياب العوج، الواحد أعصـل ، والمراد هنا أنه يصك أنيابه بعضها على بعض : لغيظه ، أسرتها : خطوطها ، الـودى: الموت ، المقرور: الذى أصابه البرد.

(٢) أنظر الحيوان ، ٢٤٢/٣ ، ٢٧٩/٤ .

(٣) ديوانه ٦٤٣ .

رقشاء جرداء من الثياب كأنما تبصر من نقاب
فعلقت عرقوبه بناب لم ترع لى حقا ولم تحاب
فخروا نصاعت بلا ارتياب كأنما تنفخ من جراب
لا أبت إن أبت بلا عقاب حتى تذوقى أوجع العذاب

وهو كما نرى فى البيت الأخير, يدعو على نفسه - فى حسرة وألم - بعدم الرجوع سالما إن رجعت تلك الحية دون عقاب أليم.

الجدير بالذكر هنا أن الشعراء العباسيين, اندمجوا بأحاسيسهم ومشاعرهم - نتيجة للطبيعة المتحضرة آنذاك - مع الحيوانات وبخاصة الأليفة منها. فجعلوا فى قصائدهم مشاهد كثيرة لبعض الحيوانات, كما اتخذوها رمزا فى بعض الأحيان. كما فعل "ابن العلاف" حينما بكى غلاما له قتل فكنى عنه بالهر, وهى قصيدة طويلة يقول فيها[1]:

يا هر فارقتنا ولم تعد وكنت منا بمنزلة الولد
فكيف ننفك عن هواك وقد كنت لنا عدة من العدد
تطرد عنا الأذى وتحرسنا بالغيب من حية ومن جرد

والقصيدة كلها تسير على هذا النمط من التألم والتحسر على هذا الغلام الذى اتخذ الهرله رمزا ومشهدا فى هذه المرثية, مما يدل على مكانة الحيوان فى نفوس الشعراء العباسيين.

والحق أن العباسيين كانوا أكثر توسعا فى وصف الحيوان من السابقين بالإضافة إلى رقة مشاعرهم ورهافة أحاسيسهم.

(١) العصر العباسى الثانى ، د. شوقى ضيف ، ط ٤ ، دار المعارف ١٩٨١ ، ص ٢١٩.

(د) العصر الأندلسى :

اعتنى الشعر الأندلسى عناية كبيرة بوصف الطبيعة الصامتة والحية وإيداعها فى لوحات فنية معبرة عن العديد من سمات وملامح الطبيعة الأندلسية.

وكانت عناية الشعراء الأندلسيين بوصف الطبيعة الحية واضحة بارزة, فعشقوا الجمال الطبيعى الممثل فى الخيل والزرافة والحمام والأسد والذئاب والكلاب, بالإضافة إلى وصف بعض الحشرات مثل النمل والنحل والعقوب, وكذلك الزواحف, والطيور بأنواعها(١).

لكن أهم ما يلاحظ على وصف الحيوان فى ذلك العصر هو استقلالية هذا الفن وبخاصة فى عصر الطوائف والمرابطين أو منذ أوائل القرن الخامس للهجرة وحتى منتصف القرن السادس, حيث إن هذه الفترة كان الشعراء يصدرون فى أشعارهم عن الحاضر الملموس, ويمثلون النفس ومشاعرها والبيئة مع الأخذ بخط من التقليد للشعراء فى الشرق, فإذا انتهى هذا القرن تم انتصار الجديد, وتمثل فى أشعار "ابن حمد يس", و"ابن عبدون" و"ابن خفاجة", و"ابن وهبون", و"لسان الدين الخطيب" وغيرهم من الشعراء(٢). وإن كان هذا لم يمنع بعض الشعراء من الاتيان ببعض أوصاف الحيوان فى أغراض الشعر الأخرى كالمديح والهجاء, والفخر كما كان يفعل لمشاركة فى مقدمات قصائدهم, لكن الغالب آنذاك كان استقلال وصف

---

(١) وصف الحيوان فى الشعر الأندلسى، د.حازم عبد الله خضر ،دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٧ ص ٢٤ .

(٢) أنظر شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٢٥٠ .

مقدمات قصائدهم, لكن الغالب آنذاك كان استقلال وصف الحيوان عن الأغراض الأخرى.

كما يلاحظ أنهم وصفوا الحيوانات التى عايشت الإنسان وشاركته بيئته كالخيول والطيور وكلاب الصيد, بالإضافة إلى الضوارى المؤذية كالأسد والذئب والحشرات كالعقرب والبق والبراغيث(١).

كما يلاحظ الجدية والطرافة فى وصف الحيوان, ولعل الخيل أكثر الحيوانات التى ظفرت بعناية الشعراء الأندلسيين ووصفهم, ومبالغتهم, فهم لا يعتمدون على وصف الخيل بالسرعة فحسب - كما فعل الشعراء المشارقة, ولكنهم يجعلونها طائرة فى جسم فرس لا تكاد العين تلمح شيئا منها لحظة انطلاقها, أو كأنها البرق الخاطف فى سرعته يسبق الطرف منطلقا كأنه جرم يتقلب فى أجنحة الرياح, ومن هذه الصور قول المعتمد فى وصف فرس أدهم(٢):

ومستبق يحار الطرف فيه ... ويسلم فى الكفاح من الجماح
كأن أديمه ليل بهيم ... تجمل باليسير من الصباح
إذا احتدم التسابق صار جرما ... تقلب بين أجنح الرياح

ومن وصف الفرس إلى وصف الأسد وإبراز قوته الإيجابية, وقد اشتهر فى هذا الموضوع شعراء كثيرون فى الأندلس وبخاصة فى عهد الطوائف والمرابطين ومنهم "ابن حمد يس الصقلى" الذى كان مبرزا فى هذا الميدان, وله قصائد عدة فى وصف الأسد ومنها رائيته التى يقول فيها(٣):

---

(١) أنظر: قضايا أندلسية ، بدير متولى حميد ص ١٣٣ .
(٢) وصف الحيوان فى الشعر الأندلسى ص ٣٥ .
(٣) ديوان ابن حمديس ، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٠، ص ٥٤٩ .

وليث مقيم فى غياض منيعة أمير على الوحش المقيمة فى القفر
يوسد شبليه لحوم فوارس ويقطع كاللص السبيل على السفر
هز برله من فيه نار وشفرة فما يشتوى لحم القتيل على الجمر
سراجاه عيناه إذا أظلم الدجى فإن بات يسرى باتت الوحش لا تسرى
له جبهة مثل المجن ومعطس كأن على أرجائه صبغة الحبر
يصلصل رعد من عظيم زئيره ويلمع برق من حماليقه الحمر

هذا وقد تناول الشعراء الأندلسيون كثيرا من الحيوانات والطيور والحشرات كما أشرنا (١) - لكنهم امتازوا عن المشارقة فى ابتكار بعض الأخيلة السامقة والصور المبتكرة, والمزج بين الأجزاء والألوان المختلفة , فى أسلوب امتاز بالرقة والبساطة والوضوح, ولعل البيئة الأندلسية - بجمالها وسحرها - كانت سببا فى كل ذلك.

المهم أن الحيوان كان له نصيب كبير فى أشعار هذا العصر مما يدل على مكانته وافتتان الشعراء به, ورغم ذلك لم يخرجوا عن إطار المشارقة فى وصف الحيوان إلا فيما أشرنا إليه من جدية الخيال وطرافة الصورة ورقة الأساليب.

(هـ) العصر الحديث :

يأتى العصر الحديث وينشغل الشعراء بقضايا مجتمعاتهم وأوطانهم السياسية والاجتماعية, ويصدرون فى أشعارهم عن إحساس بالمسئولية تجاه

(١) أنظر تفصيل هذا الموضوع فى كتاب ، وصف الحيوان فى الشعر الأندلسى ، د. حازم عبد الله خضر.

تلك القضايا, ومن ثم كان اهتمامهم بالطبيعة ومظاهرها ووصف الحيوان قليلا ونادرا.

كما أن طبيعة الحياة فى هذا العصر تختلف عن العصور السابقة, حيث كانت البيئات فى العصور السابقة دافعا وباعثا حقيقيا لوصف الحيوان بأنواعه, إذ كانت الحيوانات تستخدم فى السفر, والصيد والحرب, وكل هذه الاستخدامات للحيوان قد تلاشت فى العصر الحديث, ومن هنا كان تناول الشعراء للحيوان - كما كان من قبل قليلا ونادرا, حيث إن بعض الحيوانات لم تعد ترى إلا فى الحدائق المخصصة لها, وما كان خارجا عنها لم يعد له استخدام قد تلاشت فى العصر الحديث ومن هنا كان تناول الشعراء للحيوان كما كان من قبل مثل الجمل والفرس إذ استعاض الإنسان عنها بوسائل أخرى.

وهذا لا يعنى أننا لم نجد ذكرا للحيوان فى الشعر الحديث, لكنه بصورة قليلة - كما أشرنا - فضلا عن اهتمام الشعراء بالحيوان الذى يقدم منفعة للإنسان كالبهائم فى الحقول , فها هو ذا الهمشرى (١٩٠٨ - ١٩٣٨) يكتب أغنية لجاموسة الفلاح وما تقدمه له من خدمات فيقول[١]:

تنقلى .. تنقلى من جدول لجدول
جاموستى يا ساحرة جوبى الحقول الناضرة
تنقلى .. تنقلى
يشدو لك العصفور ويهمس الغدير
تنقلى .. تنقلى

---

(١) ديوان الهمشرى ، دراسة وتقديم د. عبد العزيز شرف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م ص ١٨٨ .

خطـــــوتك الحســـــناء يمشى بـهـــا الــرجـــاء

تنــــقـــلى .. تــنــقــلــى

تنقلــى فــــى الـــريف وبـــالمروج طوفــــــــى

تنــــقـــلى .. تــنــقــلــى

كما اتخذوا بعض الطيور - كاليمامة - رمزا للتعبـــير عـــن بعـــض أحوالهم النفيسة[1], وقاموا كذلك برثاء بعض الحيوانات. والطيور كمـــا هـــو الحال عند الشاعر "محمد توفيق على".

الطريف فى وصف الحيوان فى العصر الحديث. انه أى الحيوان اتخـذ موضوعا لقصص الأطفال كما هو الحال عند "أحمد شوقى"[2] فضلا عـــن اتخاذها رمزا كالبعض الأوضاع السياسية للتخفى ورائها, كما كان يفعل ابــن المقفع فى كتابة كليلة ودمنة, ووضح هذا عند شوقى أيضا فى بعض قصــائده مثل (الديك الهندى والدجاج البلدى) و (الأفعى النيلية والعقربة الهندية)[3] إلى غير ذلك من القصائد.

كل ذلك جاء من خلال قصائد متناثرة فى دواوين الشعراء, لـــم تكــن كلها منظومة ولم يتحقق وصف الحيوان لذاته, وإنما اتخذ بعضها رمـــزا أو مشهدا لغرض آخر فى نفس الشعراء. ولم يتحقق وصف الحيوان لذاتـــه إلا عند الشاعر "عزت شندى موسى", فقد وضع ديوانا كاملا وصف فيه بعـــض الحيوانات فى صور متعددة سنتعرض لها بالتفصيل فى حينها أســـماه (مـــع

---

(١) أنظر ديوان توفيق - الهيئة المصرية العامة ١٩٩٨ ج ٢ / ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) أنظر قصائد عدة فى المختار من ديوان شوقى للأطفال - مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م .

(٣) أنظر السابق ، ص ٦٧ ، ٧٠ .

الحيوان) تقول الشاعرة جليلة رضا عنه: "**أريد أن أخلص إلى عمل الشاعر الطبيب الدكتور "عزت شندى موسى", فى ديوانه : (مع الحيوان) فهو يعتبر أول شاعر معاصر فى العربية, فيما أعلم يقوم بإبداع ديوان كامل عن الحيوان, قل أن يجاريه فيه شاعر آخر, لأنه كان لديه فيه مالا بد له أن يقوله, أو ما لا يملك إلا أن يقوله**"(١)

وسنقوم بدراسة هذا الشعر بالتحليل والمناقشة والوقوف على المقومات الموضوعية والفنية فى طيات هذا البحث إن شاء الله.

(١) مقدمة ديوان مع الحيوان ص ٧.

الفصل الثانى
محاور شعر الحيوان عند الشاعر

المحول الأول : النزوع الإنسانى والدينى

والنزعة الإنسانية تعنى الميل إلى حب الإنسانية واعتبار الخير العـــام للإنسان الهدف الأسمى.

والإنسان – كما قيل قديما – "مدنى بطبعه" وكما قيل حديثا, "الإنســان كائن اجتماعى" أى أنه لا يستطيع أن يعيش إلا فى مجتمع. إنه بفطرته ينزع إلى أن يعيش مع الآخرين فى علاقات إنسانية, يتبادلون المنافع والخـــبرات الحياتية, ويتعاونون فيما بينهم على كل ما يعود عليهم بالنفع.(١)

وإذا أنعمنا النظر فى هذه النزعة نجد أنها غير قاصرة علـــى علاقـــة الإنسان بأخيه الإنسان, وإنما تتخطى هذه العلاقة إلى علاقات أخـــرى بيـــن الإنسان وغيره من المخلوقات الأخرى كالحيوانات والطيور, وذلك من واقـــع مسئوليته التى يستمدها من فطرته الإنسانية قبل أن يتلقاها من الخارج, وكلما كانت الفطرة سليمة ازداد لدى الإنسان الشعور بالمسؤولية نحـــو كـــل مـــا يشاركه فى الحياة.

لذا فليس بغريب أن ينشأ بعض من لا يدينون بالإسلام جمعيات للرفـــق بالحيوان ويغدقون عليها الأموال الطائلة , رعاية واهتماما بهذا الكائن الحـــى الذى خلقه الله, وفى ذلك دلالة على تلك النزعة الإنسانية التى تمليها الفطـــرة السليمة السوية.

---

(١) انظر الإنسان فى التصور الإسلامى د/ محمود حمـــدى زقـــزوق – مطبعـــة الأهـــرام التجارية ٢٠٠١ , ص٦٩.

وإذا ارتبطت هذه النزعة بالقيم الدَينية والتعاليم الإسلامية, الداعية إلـى الرفق بالحيوان ومعاملته بإحسان فى كل أحواله, كانت أقوى تمكنا من نفـس صاحبها! إذ سيكون تعامله مع المخلوقات الأخرى من الحيوان والطير, نابعا من دعامتين أساسيتين:

أولهمـا : النزعة الإنسانية النابعة من الفطرة السليمة السوية.

وثانيتهما: النزعة الدينية, أو الوازع الدينى الذى يدعو إلى الطيب من القـول والفعل.

لذا فقد خاطب الإسلام الفطر السليمة ودعاها إلى الرأفـة بـالحيوان, ومعاملته معاملة طيبة, إذ يعلمنا الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أن الإساءة للحيوان والقسوة عليه وتعذيبه بأى شكل من الأشكال يحبط أعمـال الإنسان ويعرضه لغضب الله وعقابه, وفى المقابل الرفق به والتعامل معه من واقع الإنسانية الداعية إلى اللطف والرفق, ومن منطلق الرحمة الداعى إليـها الدين, يجعل الإنسان جديرا برضا الله وغفرانه, فقد روى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: "بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه الحر فوجـد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث الثرى فقال الرجل: لقد بلـغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان منى, فنزل البئر وملأ خفـه مـاء ثـم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له وغفر له." (١)

هذا جزاء من تعاطف مع الحيوان, أما من تجرد من إنسانيته وغلـظ قلبه وتحجرت مشاعره وتبلدت أحاسيسه فإن جزاءه النار, فقـد روى عـن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: "عذبت امرأة فى هـرة سـجنتها

---

(١) رواه البخارى ومسلم ومالك عن أبى هريرة .

حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هى أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها, ولا هـــى تركتها تأكل من خشاش الأرض".(١) وتمتد الرحمة والإنسانية بالحيوان إلـــى طريقة ذبحه, ومحاولة تخفيف الألم عنه.

والحديث عن هذه القضية واسع ومتشعب, لكننا نقول أن هناك علاقـــة إنسانية تدعمها النزعة الدينية بين الإنسان والحيوان.

ومن هذا المنطلق حاول الشاعر "عزت شندى" معالجة هـــذه القضيـــة معالجة فنية تنم عن معايشة حقيقية بأحوال بعض الحيوانات, وتنبـــــئ عـــن نزعة إنسانية وإيمانية راقية, ومن ذلك تصويره لمشاعره وأحاسيســـه تجـــاه الحيوان, ومدى علاقته به , فيقول فى قصيدته "مع الحيوان" : (٢)

دعنى أخى أحيا مـــع الحيـــوان فـــى غابـــة فيفانـــة الأغصـــان
أهيـــم بيـــن قطيعـــه متنقـــلا فوق الهضاب الخضر والريضان
دعنى أر الطير الجميل بأيـــكـــه يشدو وينشد أعذب الألـــــحان
وأمتع العين التى أقذى الـــورى أجـــفانها - بشـــوارد الغـــزلان
أرنو إلى العين الحسان من المـــها فيهزنى مـــن كحلـــها العيـنـــان

وبعد بيان هذه العلاقة, وبيان مدى إعجابه بهذه المخلوقات وانبـــــهاره بقدرة الخالق وإبداعه فى خلقها, يرى أن ثمة علاقة قوية بينه وبين الحيوانات أرقى من علاقته ببعض بنى جنسه, فهو يشعر بالأمان والاطمئنان بين اعتى الحيوانات وأشرس الوحوش, وهو بذلك يعبر عن إنسانيته السامية الراقيـــة, التى جعلته يضفى على الحيوانات المفترسة جزءا منها, فكأنها تبادله إنســـانية

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر.
(٢) ديوانه : مع الحيوان ١٨:١٩ .

بمثلها وأمانا بمثله, وعطفا بمثله قلما تجد ذلك بين الإنسان وأخيه الإنسان, ولا أدل على تلك النزعة من قوله(١):

وأنام فى ظل العرين مؤمنا ... ملء الجفون بعين الإطمئنان
فالليث لا يغتل غير مهاجم ... ويعافه فى شعبه الشبعان
ولربما تسدى إليه صنيعة ... فيردها بالشكر والعرفان
وتسالم الأفعى إذا سالمتها ... يوما وتأمن غدرة الثعبان
والذئب لا يحسو دماء فريسة ... لم تؤذه – فى رية الريان

ويأبى الشاعر إلا أن يضرب مثلا على إنسانيته وعطفه ورفقه بالحيوان, فها هو ذا يرسم صورة حية لمشاعره نحو كلبه الذى فقده, وما كان يكنه له من حنان وعطف, وحتى لكأن الكلب كان يبادله هذا الحنان وذلك العطف, وهذه بلا شك نزعة إنسانية راقية . يقول الشاعر معبرا عن هذه الصورة :(٢)

قد كان لى كلب نما فى قلبه ... حبى وكان يعيش فى وجدانى
ولكم تبادلنا الحنان على المدى ... فحنانه متأصل كحنانى
ولطلما حفظ الجميل للقمة ... ويهز ذيل الحمد والشكران
ويظل يحرسنى إذا جل الدجى ... ويحيطنى بأمانة وأمان

وانظر إلى هذا التداخل وذلك التعاطف مع ذلك الأسد الحبيس فى حديقة الحيوان, وقد مر به الشاعر, وتخيل حياته الأولى فى الغابة وما كان يتمتع به من حرية فى المأكل والمشرب والتنقل بين الأحراش, ومزاولة

---

(١) السابق الصفحة نفسها .

(٢) السابق ٢٠ .

هوايته فى الصيد عندما يشعر بالجوع. وفى نزعة إنسانية حانيه أشفق عليه الشاعر لما أصبح فيه من حبس وتقييد لحريته ولما آلت إليه حاله من الجوع وعطش, ومن بعد عن موطنه فى الطبيعة الرحبة, ويصور الشاعر هذا المنظر معبرا عن أحاسيسه ومشاعره فيقول:(١)

أسد أنا أم أننى هر غدا رهن القيود وفى الإسار مقيدا
أم سيد الأحراش هان ولم يعد بين الوحوش متوجا ومسودا
واللائث الهراس غل وصار فى فخ الشباك مكبلا وممددا(٢)
أم صوح الغاب الذى قد ضمنى دهرا وصرت على المدى متفردا(٣)
والماء جف من الغدير ولم يعد للظامئات من الأوابد موردا

ويحاول الشاعر بإنسانيته السامية ورقته المفرطة, أن يصور حال الأسد من الانكسار والضعف وهو فى قفص من القضبان, بعد أن كان ينعم بالحرية والعيش الرغيد فى الغاب, لا يخشى أحدا بل الكل يرهب سطوته ويخشى شراسته. والشاعر إذ يصور ذلك فإنه يتجاوب مع الأسد ويستقرأ ما بداخله, فيتحدث على لسانه وكأنه يتحدث عن نفسه وعن كل من قيدت حريته وحبس بعد أن كان حرا طليقا ينعم بالحرية والأمان ويعبر الشاعر عن ذلك بصورة قوامها المشاعر والأحاسيس التى من خلالها يريد أن يستدر رفق

---

(١) ديوان: مع الحيوان ٢٦ .

(٢) الائث والملاث: السيد الشريف أى تقرن به الأمور وتعقد, والليث: الأسد مشتق من اللوث وهو القوة - الهراس: أسد هراس يهرس كل شىء بدقة ويكسره والهرس الشديد الهراس من الأسد.

(٣) صوح وتصوح وصوح البقل: إذا آصابته آفة ويبس, وصوحته الريح: أيبسته, والمعنى أن الغاب قد يبس شجره ومات نباته فأصبح هشيما.

وعطف الآخرين على هذا الحيوان الذى صار رهن القيد والذل, وعلى كل من فى حالته من بنى الإنسان فيقول :

قفص من القضبان ضاق بما احتوى لا الحر راح على مداه ولا اغتدى
قد بات سجنا لى يحطم أضلعى لا اليوم يرجى أن يفك ولا الغدا
قد صرت أرهب بالعصا ولو أننى ما كنت أرهب لو شهدت مهندا
بل كان جهدى لا يزعزعه القنا والآن صرت مع الحوادث مجهدا
وغدوت أقنع بالفتات وطالما أغريت بالصيد السباع الزهدا
وغدا الشرى بعدى مباحا هينا تخذت ذئاب الغداب منه مرقدا

وكما هو واضح يقارن الشاعر بإحساسه المرهف بين ماضى الأسد وما كان ينعم به من الحرية وهناءة العيش وبين حاضره وما يرسف فيه من الأغلال والقيود وما يعيش فيه من جوع وعطش, وهو فى كل ذلك يتصور أن لو كان مكان هذا الأسد الحبيس فماذا هو صانع وقائل؟ وعن هذا الإحساس عبر الشاعر على لسان الأسد فى صورة تقطر ألما وحسرة وبؤسا, تشير إلى ما وصل إليه من استسلام وخور وضعف واستكانة وتنبئ عما فى داخل الشاعر من إنسانية وعطف على الحيوان, يقول عزت شندى : (١)

لو قد علمت بما يخبىء لى القضا لهجرت سكنى الغاب هجرا سرمدا
ياليتنى ما كنت فيها المرتجى بين الربى أو كنت فيها الأيدا
أو ليتنى ما كنت ملكا للشرى ذا هيبة أو عشت فيه السيدا
أو كنت خلقا تافها لا يقتنى أو ليتنى قد غالبنى سهم الردى

---

(١) ديوان: مع الحيوان ٢٦: ٢٧ .

فيـــهون عنـــدى أن أقـــوم مكبـــلا ويحـــل عنـــدى أن أنـــام مصفـــدا
أوليت أمى لم تجـــىء بـــى الدنـــى عند المخاض وما رأت لى مولـــدا

وغير خاف مدى تلاحم الشاعر مع هذا الحيوان, ورفقه بـــه وحدبـــه عليه, والتألم لما آل إليه مصيره من الذل والهوان وقد جاءت الصورة موحية ومعبرة, إذ جعل الشاعر جزئياتها على لسان الأسد لتكون أوقع فـــى النفـــس وأشد تأثيرا, ودالة على النزعة الإنسانية والدينية التى تأبى الـــذل والـــهوان, وتستنكر القسوة والظلم حتى ولو كان مع الحيوان, فالرفق لا يكون فى شـــىء زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه.

وإذا كانت هذه صورة الأسد وهو حبيس بين القضبـــان, لا يســـتطيع فكاكا, فإن الشاعر لا ينسى صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها من القـــوة والشراسة والغلبة والسيطرة على بقية الحيوانات, واقتناص ما يريـــده منـــها دون مجاهدة أو عناء, وهذه الصورة يرسمها الشاعر على لسان الأسد لتكون أدعى للقبول, ولتكون دالة كذلك على تلاحم الشاعر مع هذا الحيوان, وأن ما هو فيه الآن ليس دليلا على ضعفه, بله ملك الغاب والسيد المطاع, لكن القدر انحى عليه, فجعله ذليلا بعد عز, وضعيفا بعد قوة, وفى ذلـــك إشـــارة مـــن الشاعر إلى إيمانه بالقضاء والقدر, وأنه لا يحدث فـــى ملـــك الله شـــىء إلا بإرادته وعلمه , يقول الشاعر خالعا على الأسد صفات القوة والمهابة :(١)

وذكرت مغنى صبوتـــى ورأيتنـــى أســـرى بـــه مترقبـــا مـــترصدا
وذكرت صحوى فى البكور أجول فـــى أرجـــائه وأصول فيـــه مـــهددا

---

(١) ديوان : مع الحيوان ٢٨.

ولكم صرعت الوعل دون مشـــقة فى ضربة بين القــرون مســددا [1]
ولكم شققت فريستـــــى بمخـــالبى لم يخلق الله المخالب لى ســــدى
ولكم قنصت من المها ما أشـــتهى وكذا الظبـــاء النافرات الشـــردا
فإذا شـــبعت مضيــت دون تصيــد ما كنت ممن قـــد طغـى وتمــردا
بل ليس من طبعى الوثوب على امرئ ما دام مرّ فما أغـــار أو اعتـــدى
شيم الملوك وقـــد تـــأصل فيـــهمو نبل الطباع منـــارة لمـــن اقتـــدى

والملحوظ أن الشاعر يرى بحسه الدينى أن ما فيه الأسد مـــن القـــوة والغلبة إنما من صنع الخالق سبحانه وإبداعه, وأنه وضع فى كـــل مخلـــوق مقومات الحياة ووسائل الدفاع عن النفس واتضح ذلك فى قوله: "لم يخلـق الله المخالب لى سدى" .

كما نلاحظ أن الشاعر أورد بعض الصفات الذاتية للأسد أنه لا يقـــوم للصيد والطعام إلا إذا عضه الجوع, وإذا شبع فالصيد لا يعنيه, وهذه وصفته.

ومن الصفات التى خلعها الشاعر على الأسد منها أنه يسالم من يسالمه, ويهاجم من يهاجمه, وهذه دلالة على أن الشاعر ملم وعلى معرفـــة كاملـــة بطبائع الحيوانات, ذلك أنه - كما أشرنا من قبل - كان يقضى جل وقتـــه - تقريبا - فى حديقة الحيوان بالجيزة, فضلا عن مخالطتها فى الريف فى بداية حياته.

وعلى المحور نفسه, تجاوبت نفس الشاعر وعواطفه, وتجلت الإنسانية بأعلى صورها, حينما التفت بأحاسيسه ومشاعره إلى منظر ربمـــا لا يلفـــت نظر الكثيرين إلا من وهبوا قلبا رقيقا وأحاسيس مرهفة, تحس بما لا يحســـه

(١) الوعل : تيس الجبل .

الآخرون. ذلك المنظر عبر عنه الشاعر (عزت شندى) بنفسه فيقول: "كـــانوا ثلاثة أفرخ (كتاكيت) نربيهم عندنا ليتسلى بهم حفيدى الصغـــير وتعـــهدناهم بالرعاية والاهتمام, ورغم ذلك مات أحدهم وبقى اثنان معا فكانـــا صديقيـــن حميمين ياكلان ويشربان ويلعبان سويا حتى فرق المـــوت بينـــهما بمـــوت أحدهما, فعاش الثانى بعده حزينا لا يفتأ يصرخ ويصيح وامتنع عن الطعـــام والشراب حتى أشرف على الهلاك ثم مات هو الآخر. ولقد عشت فى مأساته أياما أتابع حالته وأمر عليه وأنصت إليه, وأخيرا كانت هذه القصيدة الباكيـــة على ما كان من الفرخ الوفى الحزين"

وهذا المنظر – كما قلت – لا يستدعى انتباه بعض الناس ولا يحـــرك مشاعرهم لكن الشاعر بإحساسه الصادق وعاطفته الجياشة عبر عنـــه أيمـــا تعبير وأجمله, فراح يصور ألمه وحزنه على ذلك الفرخ الحزين, الذى بـــات فى حزن وأسى على فراق أخويه وانقطع عن الطعام والشراب حتى مـــات, وقد صور الشاعر ذلك كله بطريقة تثير المشاعر وتحرك الوجـــدان وتزيـــد الانفعال, وتشير إلى إنسانيته ورفقه بالحيوان والطير على الســـواء, يقـــول الشاعر :

مـــالى آراك علـــى الـــدوام بكيـــا ترثى الرفيـــق صبيحـــة وعشـــيا
يـــا فرخ أقفرت القلوب لدى الهوى مـــا بـــال قلبـــك لا يـــزال نديـــا
قلبى عليك لقـــد أثـــرت مواجعـــى ونكأت جرحـــا كـــان قبـــل خفيـــا
أتظـــل تحـــى الذكريـــات وتنثنـــى تطوى الضلوع على الجراح قســـيا

وبعد أن وضح الشاعر ما تركه ذلك الفرخ الحزين فى نفسه من ألـــم وحزن, أخذ يصور – فى تلاحم قوى – مأساة هذا الفرخ, وما به من ألـــم,

ولعل مهنة الطب قد زادت من رقة قلبه وإنسانيته, وجعلته يشعر بآلام غيره من الإنسان والحيوان والطير, ويصور الشاعر هذه المأساة قائلا:(١)

وتبيت تختزن الأسى بين الحشا   حتى ظننتك قد تموت أسيا
وعزفت عن زاد الحياة فلم تذق   مما بأطباق أمامك شيا
فحرمت نفسك عن طعام سائغ   وظمئت ولم تطلب لظمئك ريا
وكففت عن شدو الطيور فلم تجد   إلا صراخا محزنا وشجيا
وقنعت من بعد الرفيق بهجعة   فى الركن تبدى انفرادك عيا
وبقيت وحدك لست تلقى صاحبا   يأسوك أو تلقى سواه نجيا
ولكم لعبت مع الرفاق منقرا   تبدى مجونك جيئة ومضيا

ثم يتخذ الشاعر من وفاء هذا الفرخ وإخلاصه لأقرانه الذين رحلوا عنه ركيزة للمقارنة بين صفات الفرخ وصفات الإنسان, ووصل من خلال تلك المقارنة, إلى أن الفرخ أكثر وفاء من الإنسان, ولعل ذلك تعبير عن حالة نفسية للشاعر ترسبت فى أعماقه وحركتها حالة هذا الفرخ الحزين, يقول الشاعر:

ظنى بأنك سوف تبقى باكيا   إذا كنت للميت العزيز وفيا
ولسوف تحفظ عهده طول المدى   بل لن تحس مدى الزمان سليا
ياليت كان المرء مثلك فى الوفا   بل كان بعد الراحلين نسيا
أوليته كالطير فى إخلاصه   و كان الدرس الثمين وعيا

(١) ديوان الحيوان ٧٠ : ٧١ .

وإذا كان الشاعر قد صور بأحاسيسه ومشاعره هذا الفرخ على هذه الصورة من الوفاء والإخلاص لأقرانه, فإنه مما لا شك فيه أنه ينشد تلك الصفة فى بنى الإنسان يبتغى الرقى فى أخلاقهم وتصرفاتهم وأن يكونوا على درجة كبيرة من الوفاء والإخلاص, وبخاصة والإنسان هو المكلف بإعمار الأرض ونشر المحبة والوئام, والعطف على المخلوقات الأخرى من حيوانات وطيور وغيرها.

ويتسامى الشاعر بإنسانيته, وتتخطى علاقته بالأحياء من الحيوانات إلى الأموات منها, مما كانت له معها صولات وجولات, وتآلف وذكريات, تبرز مدى أبعاد الصلة العميقة والإنسانية المتسامية بين الإنسان والحيوانات سواء كانت أليفة أو غير أليفة, ومن تلك الحيوانات التى نظم فيها قصائد رائعة الثعلب والذئب المحنطان, اللذان اصطادهما الشاعر واحتفظ بهما محنطين للذكرى, وفى لحظة من لحظات العبرة والاتعاظ فكر فى مصيرهما, وحاسب نفسه على فعلته, وتملكته انفعالات وأحاسيس, تبرز مدى رقته وإنسانيته, ففى قصيدته (الذئب المحنط) أخذ يخاطب الذئب ويعدد صفاته, وما كان يتمتع به من مكر وخداع لإيقاع فريسته, يقول "عزت شندى موسى"[(١)]

قم وأنض أكفان الموات ... وأبدأ دبيبك فى أناة
وانفض غبار الرمس وأمـ ... ـض إلى السبيل وخذ وهات
فلقد سئمت النوم فى ... طول السنين الماضيات
واشتقت للقفز الطليـ ... ـق بخفة عبر القناة
وإلى التحفز للوثوب ... على هزار أو قطاة

---

(١) ديوان: مع الحيوان ٥٤ .

وتطلعت عينك بالنـــــــــــــــــظر المريب إلـــى الســــراة
وإلى التجـسس إثــــــر جـد ى والتلصـــص خـــــلف شــــاة
أو للتسلل للحظــائــــــــــــــــــر والـــــتربص للرعــــــاة
والحق إنك قـد حذقــــــــــــــت المكــر عــــبر الحقبـــــات

وبعد أن صور الشاعر الذئب وما كان عليه من صفات قبــل موتـــه, ينتقل بنا إلى وصف ما آل إليه حاله بعد الممات, وانه أصبح جســدا لا روح فيه, ولم يعد ذلك الوحش الكاسر الذى يخشاه الإنسان وبعــض الحيوانــات الأخرى, بل أصبح (موميا) , فيقول :

يا ذئب أنـــت الذئـب لـــــــــــــــكن لم تعد وحش الفـــلاة
لا أنت بـــالميت الدفـــــــــــــــين أوى إلى مثى الرفــات
وانســاق بيــن النادبيــــــــــــــن وراح بيـــن النادبــات
أو أنـــت بالـــحى الــــــذى يــــدرى أســــاليب الحيـــــاة
أو أنـــت بالتــــمثال أحـــــــسن صنعه فــــــن البنـــاة
لكنـك "المـومـيــــا" فــــلا نضو الحيـــاة ولا الممـــــات

ثم يتخذ الشاعر من الذئب وهو على تلك الحال - عظة وعبرة, فبعــد أن كان وحش الفلاة, تغير حاله وتبدلت, فداوم الحال من المحال, "وتلك الأيام نداولها بين الناس" فهذا شأن الحياة وصروف الدهر ومجرى الحادثــات, وأن الإنسان ليس له دخل فيها, وينسحب هذا على بقية المخلوقات, فلكــل بدايــة نهاية, ولكل أجل كتاب, ومن لم يمت بالسيف مات بغيره, وهذه بـــلا شــك نزعة دينية وإنسانية من الشاعر أن يرى فيما حوله عظة وعبرة, وكل هــذه

المعانى استطاع أن يعبر عنها بأسلوب واضح لا غموض فيه ولا إبهام, يقول "عزت شندى":[(١)]

ياذئب أنت اليوم تــــــــــــ	وحى بكثير مــن العظـــــــات
طوفت تصطاد الرمـــــــا	ة فكنــت صيـــدا للرمــــــاة
وخرجت تبحــث عــن هـــوا	ك فصرت بحثـــا للهــــواة
وهجمـــت تقتحـــم الحمـــى	فـــدهاك مقـــدام الـحمـــاة
ووقفت ثبتا لا تخـــــــــــ	ــــاف فشمت رمزا للثبـــات
ورميت قفـــاز العــــــدا	فجنـــد لتلـــك يـــد العـــداة

ثم يصل الشاعر – من خلال تلك الموعظة – إلى الحقيقة التى لا شك فيها ولا جدال وهى الموت, الذى تتعدد أسبابه, لكنه آت لا محالة, وقد عــبر الشاعر عن ذلك قائلا:[(٢)]

من ذا الذى يا ذئــب يــنــجـــ	ـــو مـــن صـــروف العاديـــات
إن لـــم تمت بالنار مـــــ	ـــت بحـــد مسنون الظبـــات
أو لم تقع فى الفخ أو قعـــــ	ك الدهـــاة مـــن الجنـــــاة
أو لـــم تصبــك قــذيفــــة	أرداك ســـــهم النائبـــــات
أو لــم تعاجـلـــك المنـــــ	ـــون فإن يـــوم البيـــن آت
وإذا انقضى أجل الهزبـــــ	ـــر فقد يموت من الحصــــاة
تتعدد الأسباب لكــــــــ	ـــن كلـــها اســـم للوفـــــاة

---

(١) السابق ٥٥ : ٥٦ .

(٢) السابق ٥٦ .

نلحظ فى هذه الأبيات عدة معان, منها: أنه لا ينجو أحد مما هو مقدر له, وبخاصة الموت, وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... الآية﴾ (١) ومنها أنه تتعدد الأسباب والموت واحد, وأنه ليس له مكان محدد معلوم, فإذا جاء يدرك من انتهى عمره فى أى وضع وفى أى مكان, وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ.... ﴾ الآية(٢) ومن هذه المعانى أيضا أن الأجل محدد ومسمى لا يتقدم ساعة ولا يستأخر, وهناك آيات كثيرة تشير إلى هذا المعنى, ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً...﴾ الآية(٣) ليس غريبا أن تأتى فى شعر يتناول الحيوان, وهذا دليل على رقة الشاعر ومعرفته العلاقة التى ينبغى أن تكون بين الإنسان والحيوان, كما أن فيها إشارة من الشاعر إلى أن الجميع أمام الموت سواء, الإنسان والحيوان.

وفى نهاية القصيدة يقدم الشاعر اعتذارا للذئب على اصطياده, لكنه يلتمس لنفسه العذر, إذ يرى أن ما وقع للذئب ربما يكون جزاء وفاقا لذنوب اقترفها فى السنين الخالية, وهذا دليل آخر على إنسانيته ونزوعه الديني, يقول الشاعر:(٤)

ولقد جنيت عليك يو	م ضربت فاغفر سيئاتى
فلقد تكون أتيت ذنبا	فى السنين الخاليات
أوخنت من أمن الخيانة فى	الليالى الحالكات

(١) آل عمران آية ١٨٥.
(٢) النساء آية ٧٨ .
(٣) آل عمران آية ١٤٥.
(٤) ديوان: مع الحيوان ٥٧

ولربم فتكت نيوبك بالبرىء من البزاة
فتكون قد نلت الجزاء الحق يا شيخ العواة

وللشاعر قصيدة أخرى بعنوان (الثعلب المحنط) تحمل – تقريبا – نفس المعانى لكنه يرى فيها أن الموت راحة من حياة مليئة بالتعب والنصب, وأنه يأتى فجأة إذا إنه كا من فى كل مكان, فى الأرض أو وراء السحاب.(١)

مما سبق يتضح مدى الصلة والعلاقة القوية بين الشاعر والحيوانات, وبروز النزعة الإنسانية المدعمة بالنزعة الدينية الواعية, فضلا عن الجانب العلمى والطبى الذى كان يعمل به الشاعر, ولعل هذه النزعة بهذه الصورة فى شعر الحيوان لم تتوافر عند غيره إلا قليلا ونادرة.

المحور الثانى : رثاء الحيوان .

عرف فى المصطلح اللغوى والأدبى أن الرثاء, بكاء الميت وتعديد محاسنه ونظم الشعر فيه.

والرثاء غرض من أغراض الشعر, فى القديم والحديث, وعلى مر العصور, وقد أبدع فيه الشعراء – فى كل العصور – إبداعا فنيا, يتناسب وحجم من يقال فيه الرثاء. وقد تعددت صور هذا الغرض الشعرى, ما بين رثاء للأبناء والزوجات والآباء والأمهات, والزعماء والرؤساء والملوك ورثاء المدن والممالك الزائلة, بل من صوره رثاء النفس عندما يحس الشاعر بقرب أجله, فيرثى نفسه فى لحظاته الأخيرة, ذاكرا صورا من الشجاعة والبطولة التى تعرف – عادة – لأمثاله من الشعراء والفرسان.(٢) كما حدث

(١) أنظر القصيدة فى ديوان: مع الحيوان ٥٠ :٥٢

(٢) أنظر رثاء النفس د/ إبراهيم الحاوى – مؤسسة الرسالة – بيروت طه ١, ١٩٨٨, ص ٣٨ .

من الشاعر الجاهلى (عبد يغوث بن وقاص الحارثى) حينما أسر من بنى تميم, وشعر منهم بقتله فأخذ يرثى نفسه ذاكرا ما كان عليه من الصفات الحميدة والخلال الكريمة والبطولة والشجاعة وما كان - كذلك - من (مالك بن الريب التميمى) حين لسعته حية فأحس بموته فراح يرثى نفسه معددا ما كان يتمتع به من جميل الصفات وكرائم الأخلاق.(١)

والرثاء موضوع كبير, أجريت فيه دراسات فى بطون الكتب, ودراسات مستقلة (٢) قامت كلها بتتبع هذا الغرض, ومحاولة التعرف إلى أحاسيس ومشاعر الشعراء الذين كان لهم باع طويلة فى الموضوع, وكان من أبرز صور الرثاء وأصدقه وأكثره تفجعا وتألما رثاء الأبناء, وهذا شىء طبعى, إذ الشاعر أقرب الناس لولده وقد أجمع الشعراء أن الحزن لفقد الولد لا يدانيه حزن, وقد ورد فى العقد الفريد: "موت الولد صدع فى الكبد لا ينجبر آخر الأمد" .(٣)

وقد تطور هذا الغرض تطورا ملحوظا, وبخاصة فى العصر العباسى, حيث اتجه به الشعراء - بالإضافة إلى مضمونه الحقيقى - إلى رثاء المدن والبساتين التالفة والحيوانات الأليفة, وكلاب الصيد, بل وصل الأمر إلى أكثر

---

(١) أنظر السابق ص ١٣ , ٣٧ .

(٢) كتب الأدب مملوءة بالدراسات عن هذا الغرض, ومن الدراسات المستقلة: رثاء الأبناء فى الشعر العربى إلى نهاية القرن الخامس د/ مخيمر صالح موسى يحيى - مكتبة المنار - الأردن ط ١والرثاء فى الجاهلية والإسلام - وقصيدة الرثاء جذور وأطوار .

(٣) العقد الفريد, ابن عبد ربه, شرح وضبط وترتيب أحمد أمين, أحمد الزين, إبراهيم الإبيارى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ١٩٦٩) جـ/٣/ص ٢٥٨.

من ذلك, أن بعضهم رثى قنديلا له قد انكسر , وفى ذلك دلالة على تطـــور هذا الفن وازدهاره ,(١) ورقة الشعراء ورهافة أحاسيسهم.

وامتدادا لهذا التطور جاء شعر (عزت شندى موسى) ليرسم صـــورة واضحة لرثاء الحيوان فى العصر الحديث, فقد قدم نماذج تشير إلى اندماجـه الشعورى والباطنى, وعطفه ورفقه بالحيوان, ومن ذلك قصيدته (فقدت كلبى) التى يحكى فيها تجربة حقيقة يقول عنها: "اقتنينا كلبا من نوع غير مـــألوف ومكث عندنا سنين عديدة حتى تعلقنا به تعلقا شديدا وأحبنا حبا جما. وفى يوم تركنا باب المنزل مفتوحا فخرج وأغراه بعض الجيران فلم يعد. وكان يومـــا علينا عصيبا".

ويصور الشاعر فى هذه القصيدة حزنه وألمه على فقد هـــذا الكلـــب , بعاطفة جياشة وأحاسيس صادقة , فيقول: (٢)

ذكرتك يا كلبى فـــهزتنى الذكـــرى	وقـــد غبت عنى ليلة خلتها عمـــرا
وجاشت دموع الحزن بين محـــاجرى	وفاضت بأجفـــانى فأرسلتها: شـعرا
نبـــاحك فى حلمى يقض مضـلجعى	فأصحو وقد خلفت فى أذنى وقـــرا
----------	----------
فقدتك فـــى يـــوم عصيب وليلـــه	طويل كأن الليـــل لا يلـــد الفجـــرا
فقدتك كلبـــى فـــافتقدت مؤانســـى	وباتت عيونى من دموع الأسى شكرى

وهذه الحالة غير قاصرة على الشاعر, وإنما انسحبت علـــى أطفالـــه, فانهمرت أعينهم بالدموع حزنا على هذا الكلب, بل الهرة التى كانت ترافقـــه

---

(١) أنظر نماذج لهذا التطور من هذا البحث .

(٢) ديوان مع الحيوان ٣٢ .

علاها الحزن وصامت عن الطعام والشراب, وكل ذلك يشير إلى شدة حزن الشاعر لدرجة جعلته يرى كل شيء حوله حزينا على هذا الكلب, ويشاركه مشاعره وأحاسيسه, يقول الشاعر: مصورا هذه الحال التى عمت البيت كله بما فيه زوجته, وراحوا ينتظرون فى شوق ولهفة رجوع الكلب كأنه فرد من أهل البيت :

وأسرف نجلى فى البكاء وأسبلت ... مدامعها حزنا عليك ابنتى الكبرى
وصام عن الزاد المرافق فى أسى ... وفاضت من الشكوى دموع ابنتى الصغرى
كأنك فرد ضاع منا فلم تزل ... عيون الألى بالبيت من فقده عبرى
وكان بلائى إذ فقدت مضاعفا ... أصبرهم ... لكن بى لوعة تشرى
وتكبت زوجى همها لعزائهم ... فزادت بلائى فوق ذاك هى الأخرى
يهبون نحو الباب فى كل طرقة ... سراعا كأن الباب يطرق للبشرى
ويسعون فى لف إذا دق سمعهم ... نباح وبالأشواق أوهامهم تترى
أمانى لاحت ثم راحت نكتوى ... بها ونقاسى كلما زمن مرا

ثم انتقل الشاعر – بعد أن صور أثر الحزن فى نفسه ونفس أولاده وزوجته وكل ما فى البيت بفقد هذا الكلب – إلى تعديد صفاته, وما كان يتمتع به من خلال كريمة, قلما تتوافر فى بعض الناس ممن كرمهم الله على سائر الخلائق , فيعقد الشاعر الموازنة بين صفات بعض الناس وصفات هذا الكلب, المفقود, وفيها دلالة واضحة على معايشة كاملة وتعرف تام إلى أحوال الناس وتداخل عاطفى وشعورى مع هذا الحيوان الذى كان يعيش معه فى بيت واحد, فجمعت,الموازنة بين تعديد مناقب هذا الكلب المفقود ونقد

صريح لما عليه الناس من صفات ذميمة , وفى هذه الصورة يقول الشاعر (عزت شندى) :[1]

فقد كنت لى أنسا وللدار حارسا | وللأهل سلوانا إذا انقبضوا صدرا
أناديك فى أوبى فتسرع مقبلا | على تحيينى وتبدى لى البشرا
تهز من الشكران ذيلا وتنثنى | تداعبنى حتى أمس لك الظهرا
وإن غبت يوما ثم عدت تضمنى | إليك كأنى قد هجرت الحمى دهوا
ويقبل أبنائى على بدورهم | فتمنعهم عنى ولا تقبل العذرا

ثم ينتقل إلى الموازنة بين صفات هذا الكلب المفقود وصفات بعض الناس , فيقول :

أرى الناس كفارا ـ بكل صنيعة | وكنت توفينا على لقمة شكرا
ويكشف سرى من لسرى اصطفيته | ولكنك الكتام لا تكشف السرا
ويأتى بنوا الإنسان فى الناس منكرا | وكنت ـ وأنت الكلب ـ لا تفعل النكرا
وفى الناس صنف يفسد المكر قلبه | وكنت صريح الطبع لا تحذق المكرا
وكنت أمينا تحفظ الود مخلصا | وإن من الخلان من يؤثر الغدرا
ورب أخ يدمى أخاه بنابه | وأنت رقيق الطبع قد تنبذ العقرا
وقد ينكر المكر الصديق لفقره | وأنت بلا ضيق تشاركه الفقرا
وقد كنت برا لا ترد إساءة | وتسلك للود الطريق ولو وعرا
وكنت عيوفا لا تمس قذارة | ومن مشتهى الأطباق قد ترتضى النزرا

---

(١) ديوان : مع الحيوان مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية عدد ٧, ١٩٨٧م.٣٢, ٣٤ .

ولما كان الكلب على هذه الصفات فقد راح الشاعر يصور لهفته عليه وشوقه إليه وخوفه أن يصيبه ضر أو مكروه, أو يصير غريبا ويشترى بأبخس ثمن, بعد أن كان معززا مكرما, ثم يتساءل فى حيرة ولهفة عن مصير هذا الحيوان الأليف بعد ان بحث عنه فى كل مكان وما يزال يبحث عنه دون ملل , يتساءل هل ما زال حيا دون رعاية؟ أم أنه لقى حتفه وصار إلى القبر؟ (١) وهو فى كل ذلك يعبر عن حزنه الدفين الذى ينتابه بين الحين والحين, لضياع كلبه الأثير, الذى لا ينفك يذكره ولا يقبل بديلا عنه - كما يقول له الناس - بل إنه سيسجد لله شكرا ويقدم له النذور إن عاد إليه, هذا الكلب, يقول الشاعر فى أسلوب قوى وصريح :

يقولون لا تحزن فكلب بديله يواسيك لكن من يهدهد لى الفكرا
وهل يستطيع المرء نسيان عشرة من العمر طالت بيننا قاربت عشرا
حنانيك يا كلبى هجرت ديارنا وأعلم أن الكلب لا يعرف الهجرا
سأسجد للرحمن شكر ضراعة وأنذر للرحمن إن عدت لى نذرا
أوجدا ولما نفترق غير ليلة فكيف إذا طال الفراق بنا شهرا؟

إذا كان هذا هو حال الشاعر وتلك مشاعره وأحاسيسه تجاه. كلبه الذى فقد منه وينتظر عودته بين الحين والحين, فما بالنا إذا مات هذا الكلب, ؟ فماذا سيكون حال الشاعر, وماذا هو قائل فى هذه الفجيعة؟ لقد نظم قصيدة تحت عنوان (مات كلبى) وفى سبب إنشائها يقول: "هذا هو الكلب الذى سبق أن فقدناه وقد خصصت له القصيدة السابقة. ولقد عاد إلينا بعد أيام قصيرة

---

(١) أنظر القصيدة ص ٣٤ , ٣٥ .

وبقى عندنا إلى أن مات فحزنا عليه حزنا شديدا وبكيناه بكاء مرا ورثيته بهذه القصيدة".

ويصور الشاعر هذه الحالة التى انتابته بموت هذا الكلب, وما أصابه من حزن ولوعة عليه, فى أسلوب سهل سلس, وعاطفة جياشة صادقة, يقول عزت شندى:(١)

ذكرت غداة البين فى لوعة كلبى ... فلم يحتمل عصف النوى بعده قلبى
وفاضت دموع العين حزنا على الذى ... قضى العمر لا ينفك فى ألفة جنبى
ودارت بفكرى ذكريات حفظتها ... له من معانى الصدق والود والحب
فكيف إذا عدت العشى يضمنى ... ويسكب من شوق اللقا أعظم السكب
وكيف إذا ما باعد العيش بيننا ... يظل بلا زاد وماء إلى أوبى
وكيف إذا ما مسنى الداء ليلة ... يلازم فرشى لا يزحزح عن صوبى

لكن الشاعر - بعد ذلك - سرعان ما يرجع إلى الحقيقة الأزلية, التى تنحنى لها رقاب الجبابرة , وتصير إليها الخلائق كلها دون مدافعة أو اعتراض, وهى الموت وانتهاء العمر وولوج القبر, وأن ما فى يد الإنسان من وسائل الحياة من بأس وعز وغنى ما هى إلا ودائع وعوار رهن الرجوع إلى صاحبها وبارئها, وفى رثاء يحكمه الإيمان وتنبع منه الحكمة يعبر الشاعر قائلا: (٢)

فآمنت أن العمر لابد ينقضى ... ويمسى الفتى تحت الجنادل والترب
وأيقنت أن البأس والعز والغنى ... عوار ترى رهن التربص والسلب

---

(١) ديوان مع الحيوان ٣٧ .
(٢) السابق ٣٧ .

وسوف يشد الناس يوما رحالـــهم وكل مقيم ســـــوف يلحق بـالركب

إن الشاعر فى هذه الأبيات يقرر عدة حقائق وثوابت إيمانية, لتكون لـه عونا وعزاء فى موت كلبه, كما أن فيها دلالة واضحة علـــى قـــوة إيمانـــه وصحة عقيدته, إذ إنه من الثابت إيمانا أن المؤمن إذا ألمت به مصيبـــة وأو نزلت به فاجعة لجأ إلى الله جل وعلا مستعينا به على ما أصابه.

ومن هذه الحقائق التى وردت فى هذه الأبيات, انقضاء الأجـــل مـــهما طال العمر وهذه حقيقة ذكرها القرآن الكريم فى محكم آياته, فقـــال الله جـــل وعلا: ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ (١) فكل مقيم لابد أن يرحل وكل مخلوق لا محالة ميت.

ومن هذه الحقائق التى وردت كذلك فى ثنايا هذه الأبيات, أن ما فى يد الإنسان إنما هو من عند الله وأنه هو القادر على أخذه ورده وتبديله وتغييره, إذ هو سبحانه صاحب الملك وواهب النعم, يقول الله تعالى مبينا هذه الحقيقـــة فى أسلوب ما أجمله وأحسنه : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشـــاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك علـــى كل شيء قدير ﴾ (٢) وقد ورد هذا المعنى فى البيت الثانى من هذه الأبيـــات, وهو يشبه قول الشاعر:

وما المال والأهلـــون إلا ودائـــع ولابـــد يومـــا أن تـــرد الودائـــــع

ثم ينتقل الشاعر "عزت شندى" بعد ذلك فى إنسانية سامية, وإحســـاس مرهف, ومشاعر فياضة بالرقة والعطف على ذلك الكلب, فيصور ما أصابـــه

---

(١) سورة الأنبياء ٣٥ .

(٢) آل عمران ٢٦ .

من ألم وما سرى فى أحشائه من داء استعصى على قانون الطب, وقد حلول معالجته لكن دون جدوى, فعلم أن الموت قادم لا محالة, فامتلأت نفسه بالأشجان والأسى, لكنه - كعادته - أسلم الأمر فيه لله الذى قهر الخلق بالموت, وفى دفقة شعورية عالية النبرة يعبر الشاعر عن مأساة ذلك الكلب وتألمه كأنه هو الذى يحس بالألم فيقول [1]:

سرى الداء فى أحشائه دون رحمة ... ولم يستجب يوما إلى نطس الطب [2]
وليس لذنب قد جناه فإنما ... هى الحكمة الكبرى تسامت عن الذنب
وأوليته منى العناية والوفا ... فمن لبن حلو إلى منهل عذب
وما بخلت كفاى بالطب باذلا ... قصارای حتى بت والداء فى حرب
ويوم رأيت الكرب بالكلب قاسيا ... أحس فؤادى بالقساوة والكرب
وأمسيت أرنو للصباح على أسى ... وأصبحت بالأشجان أنظر للغيب
وأحسست أن الموت لابد قادم ... فبت كسير القلب منتهب اللب
وأسلمت أمرى فيه لله سائلا ... له رحمة من قابل العود والتوب
إلى أن قضى الله القضاء بموته ... كذاك قهرت الخلق بالموت ياربى

وبعد أن أسلم الشاعر فيه الأمر لله, الذى يبدأ الخلق ثم يعيده, لا يملك إلا البكاء واستخلاص الحكم والمواعظ من تلك الحالة التى رءاها بعينيه, وأحسها بخاطره ومشاعره وذلك من خلال أسئلة تقريرية, يراجع بها نفسه ويطمئن بها قلبه, وأن الخلائق كلها إلى زوال ورجوع إلى من بدأها أول

---

(١) ديوان: مع الحيوان ٣٨ .
(٢) النطس والنطس : الأطباء الحذاق .

مرة, وأن (كلبه) ليس الوحيد فى هذه الحالة, لذا فإنه سيبقى ذاكرا له باكيـــا عليه إذ لا يملك إلا ذلك : (١)

فيا لهفى هل كل شىء إلى بلـــى وهل للذى يمضى به الموت من أوب
سأذرف فيك الدمع حزنا ولوعـــة وما الدمع إلا النفس تترف فى الذوب
وأبقى على ذكراك فـــى كل لحظة فتبقى خيـــا لا نصب أهلى بل نصبـى
وألمـــح فـــى شوق شبيهك باحثـا عن التوأم المرجو فى الشرق والغـــرب
عساى أرى وجها لوجهك اشتفى بلقياه مما في فـــؤادى مـــن لـــهب

إذا كان هذا رثاء فى كلب يمكن أن يجد بديلا له, فكيف يكون الحال لو فقد الإنسان ابنا له, فإن الخطب يكون أعظم, والمصيبة أفدح, وهذا ما صوره الشاعر وقرره من خلال دعائه بالصبر لكل من ثكل ابنه, وكيـــف لا وقـد أحس فى (الكلب) بالخطب والخسارة فما بالنا فيمن فقد أحـــد أبنائـــه وفلـذة كبده:

جزى الله صبرا كل من ثكل ابنـــه فها أنا قد أحسست فى الكلب بـــالخطب

وفى هذا إشارة إلى أنه مهما كانت العاطفة متحكمة وقوية والمشـــاعر جياشة صادقة فى رثاء الحيوان, فإنها لاتصل بحال إلى رثاء الأبناء فلـــذات الأكباد, إذ الأمر يتعلق بجزء من الإنسان نفسه.

وعلى نفس الدرجة من الانفعال والتجاوب العـــاطفى والبـــاطنى مـــع الحيوان, يرثى الشاعر قطة كانت لديه تنال عطفه وحدبه, لكن الداء قد أودى بها ومضت إلى عالم الغيب إلى حيث المصير الأخير لكل الخلائق, فحـــزن عليها الشاعر حزنا شديدا. إذ كان يحس ويشعر بالأنس بها والائتلاف معـــها,

---

(١) ديوان مع الحيوان ٣٩ .

وفى موتها وفقدها كتب قصيدته (فجيعة فى قطة) . ذكر خلالها صفات هذه القطة, وما كانت تقدمه للبيت من خدمات جليلات مثل ملاحقة الحشرات الضارة من فئران وغيرها, علاوة على جبنها وخوفها من أى أحد يفزعها أو يحاول الاعتداء عليها, كما كانت توده وتتمسح به وبغيره من أهل بيته, وكل هذه المعانى وغيرها قدمها الشاعر "عزت شندى" فى أسلوب جميل يمتاز برقة العاطفة وسلاسة العبارة , وجمال الصياغة. (١)

وفى نهاية القصيدة يقدم الشاعر العزاء لنفسه فى فقد تلك القطة, بأن الحياة كلها ماضية إلى الزوال, وكل حى ذاهب إلى فناء, وكل نبع سيصير إلى نضوب, وليس يبقى سوى الإله بادئ الخلق ومعيده, وفى ذلك دلالة على قوة إيمان الشاعر, ورسوخ عقيدته. (٢)

وإذا كان الشاعر – فيما سبق – رثى حيواناته التى كان يقتنيها ويحبها ويعطف عليها ويرفق بها, فإنه لم يتوقف عند هذا الحد, وإنما توسع فى رثاء بعض الحيوانات التى لم يرها, لكنه سمع بموتها, على لسان أحد أو قرأ خبرها فى الصحف, كما حدّث هو عن ذلك فى ديوانه (مع الحيوان) قائلا: "طالعتنا الصحف بأن حريقا شب فى شقة سكنية, فخف رجال الإطفاء لإخماد الحريق, وفى أثناء ذلك رأوا قطة تثب فى النار بدون تهيب أو خوف, ولكنهم فى حومة العمل لم يعيروها التفاتا كبيرا, ولكنهم شد ما كانت دهشتهم بعد تفقد محتويات الشقة, وبعد انطفاء الحريق, إذ وجودا القطة تحتضن صغارها وهم متشبثون بحضنها, وهم أموات جميعا" .(٣)

(١) أنظر القصيدة فى ديوانه: مع الحيوان ٤٣ :٤٤ .

(٢) أنظر الفقرة الأخيرة من القصيدة ٤٤ .

(٣) ديوانه: مع الحيوان هامش ص ٤٨ .

فهذا الخبر أوحى للشاعر بمعان كثيرة فياضة بمشاعر الأسى والحزن والعطف على هذه القطة التى لقيت مصرعها هى وأولادها بهذه الصورة المؤلمة, فما كان منه إلا أن أطلق عليها (القطة الشهيدة) وراح يصور بخياله السامق ومشاعره الفياضة وإنسانيته السامية وإحساسه المرهف, مأساة تلك القطة وصغارها, وكأنه رآها بعينيه, كما اتخذ من موقف القطة تجاه أبنائها نموذجا للأم الحانية الرءوم, التى تضحى بنفسها من أجل أولادها, والشاعر إذ يصور كل ذلك فيقول : [1]

ولجت-ولم تخش الرد - الرمضاء ... وتسرعت كى تنقذ الأبناء

لم تكترث بالعيش بعد صغارها ... إن يهلكوا بل لا تريد بقاء

لما أن اشتمت شووا أفلاذها ... وتسمعت وسط الضجيج مواء

نسيت شبابا زاهرا ونضارة ... ونضت حياة حلوة وهناء

ومضت إلى النيران دون تعقل ... لتجير من جوف اللظى الرضعاء

وإذا القضاء يحم فى ضنو غلا ... لم تلق معقولا ولا عقلاء

فهذه صورة من يتأملها لا يحس أنها لقطة أو لحيوان, وإنما يفهم منها أنها لأم من بنى الإنسان راحت تدافع عن أولادها حر النار ولهيبها, دون أن تفكر فى نفسها أو مصيرها, وكيف لا وإذا ما نزل القضاء على الأم فى أحد أولادها انخلع قلبها, وذهب عقلها, فتراها منهوبة اللب, كسيرة الفؤاد ذاهلة العينين, وهذا ليس بمستغرب – كذلك – فى عالم الحيوان والطير, لقول الله عز وجل: ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم

---

(١) الضنو : الإبن .

أَمْثَالُكُمْ ﴾ [1] وقد أحسن الشاعر حين عبر فى البيت الأخير يقوله: (وإذا القضاء يحم) وقوله: (لم تلق معقولا ولا عقلاء) , حيث يشير بالفعل المضارع (يحم) إلى إنه عند نزول القضاء - لا بعد نزوله - بان الإنسان - وكذلك الحيوان - لا يكون فى وعيه وإنما جل همه دفع هذا البلاء, لكن بعد نزول القضاء يسلم الإنسان أمره إلى الله راجعا إليه وضارعا, إذ لا يملك من الأمر شيئا, وهذه خاصية من خواص المؤمنين.

ثم يصور الشاعر مأساة تلك القطة ومصيرها مع صغارها, فى صورة تثير المشاعر وتبعث على الأسى والحزن, وتشير إلى رقة الشاعر ودقة ملاحظته واتساع خياله, فقد حلق به ليرسم هذا المصير المأساوى, الذى لا يستطيع من نظره أن يعبر عنه بهذه الصورة, إلا من أوتى خيالا واسعا ونظرة ثاقبة, وإحساسا مرهفا مثل شاعرنا "عزت شندى" ولننظر إليه وهو يصور هذا المنظر قائلا :

لقيتهمو يتحرقون بلفحها فتعجلت بين الحريق لقاء
وتشبثوا بضروعها وذراعها لكنها لم تدفع الهوجاء
لم يدركوا منها الغذاء وإنما صاروا جميعا للَهيب غذاء
ودت ولو أنهم نجوا وهى التى هلكت وكانت للصغار فداء

وبالرغم من هذه النهاية المؤلمة وذاك المصير المحزن, إلا أننا لا نفهم مما سبق أن الشاعر يرثى قطة, إذ يمكن أن يحدث كل ذلك لإنسان ما, وهذه دلالة على أن (عزت شندى) عبر عن أحاسيسه وعاطفته - تجاه هذا الحدث - بصدق وعطف شديدين,كأنه يرثى إنسانا, وهذه - فيما أرى ـ قمة

---

(١) الأنعام آية ٣٨ .

الاندماج الشعورى والعاطفى فى رثاء الحيوان, حيث لم يورد الشاعر – فيما سبق – وصفا حسيا يشير إلى أن المرثى حيوان, فكل ما أورده من صفات أو تصرفات تنطبق على الإنسان, لذا تنبه الشاعر لذلك فأشار فى صراحة إلى أن المرثى حيوان لا إنسان, وذلك فى قوله (أم القطاط).

ثم يصور الشاعر المشهد الأخير لهذه المأساة, فبعد أن خمد الحريق وأطفأت نيرانه وقعت أعين الناظرين على ذلك المنظر الذى يحرك المشاعر ويثير الشجن,, حيث تعلق الصغار بصدر أمهم (القطة) التى ألقت بنفسها وسط الحريق لتنقذهم , وتبرد حرهم, وقد أكلتهم النار ولم تبق إلا هياكلهم مشدودة إلى صدر أمهم كأنهم كانوا يطلبون منها الحماية, فهز ذلك المنظر مشاعر الرقباء والناظرين, فهمت أعينهم على أولئك الصغار, وامتلأت نفوسهم أسى وحزنا على الأم (القطة) التى ضحت بحياتها – وهى أغلى ما تملك – من أجل إنقاذ أولادها, لكن الحرص لا يمنع نزول القدر وجريانه ولننظر كيف استطاع الشاعر أن يعبر بخياله السامق وعاطفته الجياشة عن هذا المنظر دون أن يراه, وفى ذلك دلالة على أن الشاعر– أى شاعر– يمكن أن يتأثر بما حوله سماعا ومشاهدة , إذ يتمتع بحس لا قط وبصيرة نافذة , يقول "عزت شندى" : (١)

أم القطاط قد استحقت رحمة من ربها ومن العباد ثناء
نسيت حريق النار حين تدلفت لسعيرها وتناست الوعثاء
فى حب من حملت ومن وضعت ومن أضحت لهم بلباتها الثديا ء
حتى إذا خمد الحريق وأطفأت نيرانة وتفقدوا الشهداء

---

(١) ديوان: مع الحيوان ٤٧ .

وجدوا التى قفزت بــدون رويــة وسط الحريـــق فــهزت الـــرقباء

فــإذا الصغار معلقون بصدرهـــا وكأنـــهم يجـدون فيــه وقـــاء

وإذا هى الأخرى على الولد انثنت حتــى تخفـف عنــهمو الرمضـــاء

وحنت عليهم كى تـــبرد حرهــم لكنــها لـــم تســـتطع إطفـــاء

تهمى العيون على الصغار وإنمـا لـــلأم تـــهمى لوعـــة ورثـــاء

لا يمنع الأقدار عـــن جريانـــها حـــرص الحريص ولا يـــرد قضـــاء

ولم يقتصر هذا المحور (الرثائى) على الحيوان فحسـب, بـل شـمل الطيور كذلك, مما يدل على اتساع أفق الشـاعر, وعمـق نظرتـه, ونفـوذ بصيرته, فقد راح بحسه اللاقط وإحساسه المرهف, يرثى يمامة كانت تحـط على سور بجوار بيته, فانهار هذا السور ولم يعد يتمتع بالنظر إليـها وهـى تغرد, فحزّ ذلك فى نفسه, وتصور أنها ماتت, فراح يرثيها بهذا الرثاء الحار, الصادر عن مشاعر رقيقة وعاطفة جياشة, يقول "عزت شندى" : (١)

نواحك يا ورقاء ينكأ فى الحشـــا جراحى كما تدمى الصدور الخنـــاجر

عفا العمر يا ورقاء وانقضت المنـــى ومر ربيع العيـش وانفض ســـامر

وراح من الخلان والأهل نـــخـبة مضى إثرهـم قلب وشـقت مرائـــر

ولم يبـق إلا الذكريـات تـــهزنى وتنبش فى الأعماق ما هـــو غـــائر

وبعد ... فقد لحظنا من خلال استعراضنا لهذا المحور عدة معان مــن أهمها:-

١- أن رثاء الحيوان صدر فيه الشاعر عن تجارب حقيقية, عايشها بنفســه وأحسها بحواسه ومشاعره, أى أنها لم تكن من خياله, وإنمـــا كـــانت

---

(١) ديونه ٦٠ .

واقعا ملموسا, وكلما كانت التجربة حقيقية كانت أوقع فى النفس, وأكثر تأثيرا فى المتلقى, لما تتسم به من صدق العاطفة وقوتها.

كما أن هذه التجارب لم تكن حقيقية فحسب, بل إن جل الحيوانات التى رثاها كانت حيواناته التى يرعاها بنفسه,مما جعل رثاه أكثر صدقا وأشد قبولا

٢- أن الرثاء للحيوان جاء معبرا تعبيرا واضحا عن شخصية الشاعر الإيمانية , حيث صدر فى ذلك عن ثقافة إيمانية, فلم يكن رثاؤه نواحا واعتراضا على قضاء الله, بل إنه غالبا ما كان يختم قصائده فى هذا الشأن بما يشير إلى الرضا بالقضاء والقدر.

٣- أن رثاء الحيوان – عند الشاعر – لم يكن حسيا يتتبع الصفات الحسية للحيوان وما كان عليه – قبل الموت – من قوة أو ضعف أو غير ذلك من المظاهر الخارجية وإنما جاء مندمجا ومتعاطفا مع الحيوان, حتى أن فى مواضع كثيرة يعتقد القارئ أن الشاعر يرثى إنسانا عزيزا عليه, وفى ذلك إشارة واضحة إلى رقة الشاعر ورهافة إحساسه ودقة مشاعره وعمق تجربته .

المحور الثالث : النزوع الرمزى .

والمقصود بالرمز فى الشعر تعبير الشاعر بشىء يقصد من ورائه شيئا آخر لا يريد الإفصاح عنه لسبب من الأسباب.

أو هو البث غير المباشر, يستعيض فيه الشاعر بالصور عن التقرير, ولا يأتى بالتشبيهات والاستعارات والمجازات لجامع شكلى بل لجامع نفسى, أى كوسيلة للتعبير عن انطباعات النفس, لا عن مظاهر الشكل الخارجى.[1]

---

(١) أنظر حسن كامل الصيرفى, د. محمد سعد فشوان, مكتبة الكليات الأزهرية ط ١, ١٩٨٥,ص١٩٢

والرمز أو الرمزية لا تعنى استنفاد كل ما فى وجدان الشاعر, وسكبه فى وجدان الآخرين, بل تعنى الإيحاء عن طريق الصور و الموسيقى بحالات نفسية, إيحاء ينير – عن طريق التأمل – للآخرين نفوسهم, فيستشعرون وقع التجربة التى عناها الشاعر فى حياته الواقعية, أو بطاقته التصويرية التى تخلق التجارب. (١)

ويعتمد الرمز على خاصية المرونة الكائنة فى اللغات عامة, وهى مرونة تقوم بدورها على أدوات بلاغية معينة أهمها التشبيه والاستعارة والصور المجسمة.(٢)

وقد عرف الأدب العربى – قديما وحديثا – الرمز والتعبير به, ففى القديم كان الوضوح السمة البارزة فى الرمز باستخدام التشبيه والاستعارة وغيرهما, أما فى الأدب الحديث فقد توسع الشعراء فى استخدام الرمز, لكنهم لم يصلوا إلى حد الإبهام والتعبير المستغلق. (٣)

وإذا كانت الرمزية تعتمد – كما أشرنا – على الألوان البلاغية, فإن الموسيقى والإيقاع يلعبان دورا بارزا فى إيجاد اللون النفسى الذى يريد الشاعر إبرازه, وفى جعل تجاربه زاخرة بكل ألوان الحركة والنشاط, وهذا من شأنه أن يحمل القارئ أو المتلقى على أجنحة شفيقة من رائق الخيال, فيصاب – ويجوس به فى أعماق التجربة الشعورية الحية التى عانى منها

---

(١) أنظر, السابق ١٩٣ .

(٢) أنظر إتجاهات الأدب ومعاركه فى المجلات الأدبية فى مصر, د/ على شلش الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١ ، ص ١٢٣ .

(٣) أنظر السابق ١٢٥ .

الشاعر عن طريق العدوى بتلك الحالة النفسية المركبة التى كانت تموج بـــها نفس الشاعر, قبل أن يصبها ألفاظا وأساليب فى قالب شعرى. (١)

وإذا نظرنا إلى شعر الحيوان عند شاعرنا (عزت شندى) نـــرى أنـــه وظف هذه الناحية الفنية توظيفا يخدم تجربته, ويدلل على صـــدق عاطفتـــه, ورقة مشاعره ويجعل الشعر ينساب إلى النفس فى رقة وعذوبـــة, تحمـــلان القارئ أو المتلقى على الاندماج الشعورى والمشاركة الوجدانية للشاعر.

وقد تلونت الرمزية فى شعر الحيوان عند الشاعر, ففى قصيدته "مـــع الحيوان" تختلط الإنسانية بالرمزية, فيندمجان فى وحدة أثيرية شفافة من أجل النهوض بالفكرة, والتعبير عن التجربة الشعورية التى مـــاجت نفســـه بـــها, وأدائها فى صورة فنية رائعة.

فالشاعر يعبر فى هذه القصيدة عن النزعة الإنسانية, اتجاه الحيـــوان – وما ينبغى على الإنسان – من واقع مسئوليته فى الحياة – من رفق ورحمـــة بالحيوان, لكنه ينتقل فى ذلك – فى رمزية إنسانية إلى وصـــف ســـلوكيات الحيوان وما يتمتع به من المسالمة وعدم الغرور , والشبع والقناعة, والصفاء وعدم المكر والخيانة, وهذه كلها صفات لا يتسم بها إلا الإنسان, لكنه اتخـــذ الحيوان رمزا لإظهار بعض عيوب,البشر, فى نزعة نقدية لما عليه بعـــض أفراد المجتمع من قبيح الصفات وذميم الأخلاق : (٢)

وأنام فـــى ظـــل العرين مؤمنـــا مـــلء الجفـــون بعيـــن الاطمئنـــان
فالليث لا يغتـــال غـــير مـــهاجم ويعـــــافه فـــى شـــبعة الشـــبعان

---

(١) أنظر حسن كامل الصيرفى ١٩٣ .

(٢) ديوان: مع الحيوان ١٩ .

ولربما تسدى إليه صنيعة فيردها بالشكر والعرفان
وتسالم الأفعى إذا سالمتها يوما وتأمن غدرة الثعبان
والذئب لا يحسو دماء فريسة لم تؤذه - فى رية اليان
ولذئب فيفى لو علمت أبر من ذئب المدينة أفتك الذؤبان
والغاب أقدس فى زئير وحوشها من قرية دنست بصوت الجانى

فالشاعر - هنا - يتصور أن الأمان والاطمئنان يكونان فى معية الحيوان, ثم يعدد مجموعة من الصفات, لا يقصد بها الحيوان بذاته, لكنه يرمز بها إلى بعض الآفات الاجتماعية التى أصابت بعض أفراد المجتمع, حتى صار الحيوان أعلى منهم مكانة وأسمى منزلة, ويتخذ من الذئب رمزا للإنسان المختال المخادع ويرى أن ذئب الصحراء أبر من (ذئب المدينة) وهو الإنسان. ثم يتخذ من الكلب رمزا للوفاء, ويتمنى ألا لو كان فى الإنسان بعض ما فى الكلب من الوفاء :

هذا هو الكلب الوفى وحبذا لو منه فى الإنسان بعض معانى

ثم يتدرج الشاعر فى فكرته فيرى أنه ليس له مقام بين الناس, لما يحملونه بين طياتهم وفى صدورهم من خسة ودناءة, ويرى أنهم أطغى من الشيطان بفعالهم .(١)

تبا لعيش طال فى دار الألى من فرط خستهم شكا الملوان
من يسفكون دم البرىء وربما لتوافه يتقاتل الأخوان
ومن ابتغوا رجس الدنى واشتووا نار الجحيم بجنة الرضوان

(١) السابق ٢٠ .

ولقد يبينـــون الصـــلاح وكلـــهم ممتلـــئ بالشـــــرك والكـــــفران
نفروا من الشيطان لكن كم همـــوا بفعالـــهم أطغـــى مـــن الشيـــــطان

وفى قصيدته "صفا الجو يا ورقاء" يصور طائرا جميلا كـــان يوقظـــه لصلاة الصبح, وكان الشاعر ينزل فى فندق صغير فى غابة غناء مزهـــرة, فتأثر لهذا الجمال الأخاذ, وراح يصور فرح الطائر وإحساسه بهذا الجمـــال, ويناشده بأنه إذا غاب إلفه – الذى طال بعده – أن يغنى له عند اللقاء , كمـــا يطالبها بالشكر لرب الجو والآفاق الذى لا تحصى نعماه ولا تعـــد عطايـــاه, وهو المبدع الذى تشدو خلائق الكون بذكرة فى خشية وتبتل. والشاعر فـــى كل ذلك يرمز إلى ما فى نفسه من فرح وسرور بهذا المنظر أولا, ويرمـــز ثانيا إلى جحود العباد لنعم الله عليهم وعدم شكرهم وحمدهم على ما وهبـــهم الله من منح وعطايا, وإن كان الكون كله يسبح بحمد الله "وإن من شـــىء إلا يسبح بحمده ... " إلا أن الإنسان هو المكلف بذلك, لكن الشاعر – رغم علمه ومعرفته بذلك – لم يشأ مخاطبة الإنسان مباشرة بذلك, فاتخذ الطائر رمـــزا, يخاطب من خلاله مشاعر الإنسان وأحاسيسه, ليكون الخطاب أكـــثر تـــأثيرا وأجدر بالقبول, يقول الشاعر .[1]

قفى وارقصى فوق الغصون وغردى وضمى على الزغب الجناحين وافـــردى
وحطى على العش الدفىء وإن سجا بك الليل بعد السعى للـــرزق فارقـــدى
وإن عـــادك الإلـــف الذى طال بعـده فغنى لـــه عنـــد اللـــقاء وأنـــشدى
صفا الجو يا ورقـــاء والأفق هـــادئ فـــقـــومى لـــرب الجو شـــكرا ورددى
عطاياه لا تحصى إذا هـــى عـددت فـــأثنى علـــى نعمـــاه حمـــدا وعـــددى

---

(١) ديوان: مع الحيوان ٦٢ .

هو المبدع الفنان تـــشد وبذكـره خلائق هـذا الكون فاخشـيه واعبـدى

ويتدرج الشاعر فى إبراز فكرته متخذا هذا الطائر رمزا, فراح يصور مجموعة من المثالب الاجتماعية المتفشية فى المجتمع آنذاك, ومدى ضيقـه وتضجره منها, حتى أنه أصبح فى سجن لكن بلا قيود وأصفاد, كما صـور خروج الناس على القيم والأخلاق, وانعكاس الأوضاع وانقـلاب الموازيـن وفساد الأذواق, وتفشى الفوضى, حتى أتت على المرافق العامة دون خـوف من قانون أو خشية من عرف أو احترام لقرابة وصلة, والشاعر إذ يصـور كل هذه الأوضاع فيقول مخاطبا "الورقاء" (١).

طريقى مغبر على الأرض فاسلكى طريقك فى الأفـق الطهور المعبـد
مـكانك لا حــد لـه تلزمينـه وألزم نـفـسـى فى مكان محـدد
أروح به والناس حولى تكدسـت واغدوا كمن يمشنى بجسـم مقيـد
مقامك ذو رحـب وحـولى ضيق هو السـجن إلا انه غـير موصـد

ثم مـاذا ؟

هنا نحن نمشى لانظـام يقودنـا ولا ذوق بل فـوضى فشت بتصعـد
زحام ودفع بالمنـاكب مـنهك وضيق مـن الأخلاق جـد ومـهدد
ولا يصل الآذان غـير الذى نبـا من اللفظ فى معنى بذىء معـربـد
وسب وشتم لا يطيـق سـماعه ذوو الذوق والطبع السليم المحمـد
وإن صك أذن الحـريـات مسهدا على الشوك ما بين القذى والتسـهد
يرى بعضنا بعضا عداة وحسـدا كأن الورى مـن حـاقـدين وحسـد

(١) السابق ٦٣ , ٦٤ .

تمد يـــدى ود فيبـــدو عداؤهـــم وشتان مـــا بيـــن العـــدا والتـــودد

ثم يرسم صورة لما عليه المجتمع من الفوضى وعدم إحساس أفـــراده بالمسؤولية تجاه مرافقه ومنشآته :

إذا سرت يقذى العين كل الـــذى أرى أمامى مـــن عنـــف بـــــدا وتمـــــرد
سوا نـــــار حيـــم لا يضـــر بطبعـــه ونحن للاشـــىء نضـــــــر ونعتـــدى
إذا ما رأيـــــنا مرشدا لا نعنـــيـــــه وإن قـــد رأينـــــا مفســـــدا , نقتـــــد
فمـــا مرفـــق إلا ونلنـــاه بـــــالأذى فإن لم يكـــن بـــالرجل نـــؤذى فبـــاليد
وإن لـــم نقوض مرفقا مـــن أساسه نحطـــم بـــــه بابـــا ونـــود بمقـــعـــــد
فلا عرف يخشى الناس شر حســـابه ولا نصـــح يـــهدى للرضـــى والترشـــد
وما كان من قربى وحسن أواصـــــر مضـــى وتخلـــى للقلـــــى والـــــترصد

وهكذا استطاع الشاعر أن يوحى للقارى أو المتلقى بحالته النفسية إيحـاء يشعر الآخرين بوقع التجربة التى عناها فى حياته الواقعيةوأحسب أن الشاعر ما نظم هذه القصيدة , وأتى بتلك المعانى إلا لهذا الغرض, لكنه اتخذ الرمـــز والإيحاء وسيله لذلك, ويمكن أن نطلق عليها رمزية اجتماعية, حيث عـــرض من خلالها بعض قضايا المجتمع, ويمكن أن نطلق عليها كذلك رمزية نقدية, إذ إنه فى طياتها وبين ثناياها انتقد كل ما هو فاسد ومعوج فى المجتمع.

ولما كان المجتمع من حوله على هذه الصورة, فقد أوحى بمكنون نفسه وما ماج فيها من ألم وضيق, متمنيا ألا لو كان يطير بين الربى والأشجار مع العصافير والأطيار, هاربا من سجن الحياة, ونائيا بنفسه عن شرور النـــاس, وجاء الأسلوب فى كل ذلك مخاطبا جارته الورقاء. (١)

---

(١) أنظر نهاية القصيدة ص ٦٤ , ٦٥ .

ومن قصائده التى استخدم فيها الرمز قصيدة "الذئب المحنـــط" وهـــى على هيئة خطاب للذئب الذى اصطاده وحنطه واحتفظ به, فأخذ يواسيه علـــى ما أصابه, ويأمره بأ لا يحزن لماضى الذكريات الأليمة, إذ لا ينجو أحد مـــن صروف العاديات, ولعل الشاعر يرمز بذلك إلى ذكرياته هو, وما أصابه مـن محن وبلايا فى سابق أيامه,فاتخذ الذئب رمزا ليوحى بما يختلج فى صـــدره ويدور فى خلده, وهذا الأمر وهو الرجوع بالذاكرة إلى الوراء ربما يكـــون واقعا ملموسا فى حياة الإنسان, وعن ذلك يعبر الشاعر قائلا: (١)

لا تبتئـــس يـــا ذئـــب أو تحـــزن لقـــاسى الذكريـــات
أو تكتئـــب يـــا ذئـــب وار ض بحكـــم مجـــرى الحادثـــات
فلـقـــد يطـول بـــك الحنيـــ ـــن وتشـتـــكى مـــر الشـكاة
مـــن ذا الـــذى يـــا ذئـــب ينجـــ ـــو مـــن صـــروف العاديـات

ولما كانت الرمزية قائمة على البث غير المباشر, والاستعاضة به عن التقرير والتصريح, للتعبير عن انطباعات النفس ودواخلها, فقد تخللت شـــعر الحيوان عند الشاعر, واستطاع من خلالها أن يبث همومه وأحزانه, وأفراحه, فضلا عن الإيحاء بحبه وما عانى فيه من ألم وحرمان, متخذا بعض الطيـور رمزا لذلك, ففى قصيدته "اليمامة العاشقة" يصور الشاعر مأساة يمامتين كانتا تحطان على سور مجاور لمنزله ردحا من الزمن, تتناجيان وتزق كل منـــها الأخرى, وظلا كذلك حتى هوى السور, فما عاد يحطان عليـــه, ولـــم يعـــد الشاعر يرى هذا المنظر الرائع, فتحركت مشاعره, فراح يعبر عـــن ماســـاة هذين العاشقين, وقد فرقت بينهما الأقدار أو مات أحدهما بانهيار السور وظل

---

(١) ديوانه السابق ٥٦ .

الآخر يعانى مرارة الحرمان والشوق, ولا أحب أن أحلل هذا الموقف الذى أراده "عزت شندى" لكن الشيء الوحيد الذى يستحق التنويه به فى هذا الصدد أن هذا الذى حدث يمكن أن نجد له نظيرا فى دنيا الناس, بل إنه موجود بالفعل, وقد أبدى الشاعر تعاطفه مع هاتين اليمامتين وما أصابهما, وفى ذلك يقول :(١)

هوى السور يا ورقاء وانهار ساتر ... فسحت عليه بالدموع المحاجر
فلاشيء فى دنيا الورى بمخلد ... ولا تؤمن الأيام والدهر غادر
لقد كان مجلى الحب فى ضحوة ... ومغنى الهوى ترنو إليه النواظر
فما عاد يلقى فوقه الخل خله ... وصوح روض الحب فهو حفائر
وما عدت ألفى العاشقين فأنتشى ... وأهنأ إذا تهنا النهى والخواطر
وما أوضحت الولهى تزهق أليفها ... عليه فأصغى إذ تغنى الحناجر
تهدم والأسوار تشقى بدورها ... وتجرى عليها كالأنام المقادر
تقوضت يا سور الغرام ولم تدم ... وأصبحت ذكرى سوف يرويك ذاكر
وسبحان من يدرى مصير يمامة ... ألفت ... أعاشت أم دهتها المخاطر
وهل يشهد الجيران مبناك فى غد ... إذا قمت أم تأتى عليهم دوائر

ثم ينتقل الشاعر إلى الإيحاء عما فى نفسه من حب وشوق تحمل عبئه, واكتوى بناره وانتهى إلى نفس مصير اليمامتين, فأصبح ذكرى, بل جرحا غائرا يؤلمه بين الحين والحين. ويعبر الشاعر عن هذه التجربة الذاتية متخذا اليمامة رمزا فى ذلك, حتى لا يستفرغ كل ما فى نفسه, بل يوحى بذلك إيحاء :

(١) السابق ٥٩ – ٦٥ .

تذكرنى العشاق عمرا قد انقضى فأرثى لما آلت إليه المصائر
ويعتاد فكرى عهد حب عدمته لكم بت أحسو نخبه وأعاقر
وسحر لحاظ كم تصدت لمهجتى كما تتصدى للضلوع البواتر
فأبكى لما قد فاتنى من صبابة مضى شرخها عنى وتبكى المشاعر
عشقت طيور الروض أهفو لشوها وأرنو إذا قد لاح فى الجو طائر
فما خان فى عهد الود يوما يمامة وما جاء منها كالأنام الكبائر

ثم تختلط الرمزية بالرثاء :

نواحك يا ورقاء ينكأ فى الحشا جراحى كما تدمى الصدور الخناجر
عفا العمر يا ورقاء وانقضت المنى ومر ربيع العيش وانفض سامر
وراح من الخلان والأهل نخبة مضى إثرهم قلب وشقت مرائر
ولم يبق إلا الذكريات تهزنى وتنبش فى الأعماق ما هو غائر

ولعل الشاعر يشير بذلك إلى حب قديم ملك قلبه وأحاسيسه, وتشير أخباره إلى انه تبادل هذا الحب فى بداية حياته مع أدبية أصبحت اليوم من كبريات الشخصيات الأدبية.(١)

وحينما يرثى "القطة الشهيدة" يتخذ منها رمزا لإبراز دور الأم ومنزلتها ومكانتها, ومدى حرصها على أبنائها وحد بها عليهم, وتحمل المكاره والصعاب من أجلهم, بل التضحية بأغلى ما تملك فداء لهم, وفى أسلوب يثير المشاعر, ويرقق الأحاسيس يعبر فيقول: (٢)

قل الوفاء من الحياة فلا ترى بين الأنام ولو جهدت وفاء

---

(١) أنظر شعراء وداويين ١٨١ .
(٢) ديوانه : مع الحيوان ٤٧ .

بعد الأمومة لن ترى من مخلص يتقاسم السراء والضراء
والأم إن ذهبت فلست بواجد من بعدها بين الورى رحماء
فهى التى قد كان حلو دعائها يحيى المنى ويوفر النعماء
وهى التى قد كان فيض حناتها يضفى الهناء ويسبغ السراء

ثم يشير فى نهاية القصيدة إلى موقف تلك القطة من أبنائها, وكيف ضربت المثال فى التضحية والفداء وهى العجماء, فكيف بالأم من بنى الإنسان؟

يا قطة أعطت مثالا طيبا للأمهات وأعطت الأباء
ضحت بغالى عمرها وحياتها كيما تلبى للبنين نداء
فقضت شهيدة حبها ووفائها ولكم شهيد آثر الأحياء
ما قيمة الدنيا إذا غاب الذى يعطى الحياة طلاوة ورواء

والشاعر فى هذه الأبيات يشير إلى أمرين:

الأول : أنه يشير إلى موقف الأم أبنائها وكيف تضحى بغالى عمرها وحياتها كما فعلت تلك القطة.

الثانى: أنه يشير إلى أن الحياة لا قيمة لها بعد فقد الأولاد, إذ هم زينة الدنيا وفى ذلك إشارة إلى قول الله عز وجل: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ الآية[1] أو أنه يشير إلى فقد الأم, إذ تعدوا الحياة بدونها شيئا لا قيمة له فى نفوس الصالحين من الأولاد, وهذا ما نفهمه من البيت الأخير فى الفقرة السابقة.

---

(١) الكهف أية ٤٦ .

وفى قصيدته "فجيعة فى قطة" يتخذ منها الشاعر نقطة انطلاق لبيان فجيعته ومصابه وقدره فى الحياة, واغترابه بين أهله وناسه, وتحمله الهموم والأحزان, متخذا– فى كل ذلك – القطة رمزا يرتكز عليه لبيان ما أصابه وألم به وفى ذلك يقول: (١)

محياك يا قط محياى ليس يخلو من الكروب
ودهرك النحس مثل دهرى ما أنفك يقسو على اللبيب
تعيش بين القطاط عيشى فى الناس أنساب كالغريب
ولم تزل فى الحياة مثلى تمر بالموقف الصعب
نصيبك النزر خاب فيه الـ ـمنى كما خاب فى نصيبى
فأنت بين الهموم خدنى وفى مآسى الدنى نسيبى

وفى قصيدته "الطائر الأسير" ينعى لحال طائر حبيس فى حديقة الحيوان, يقف منطويا على نفسه فى ركن من أركان القفص وتبدو عليه الكآبة والحزن, فينطلق الشاعر من هذا المنظر إلى الحديث عن قضية الحرية, والتضييق على بعض الناس بالحبس وتقييد حرياتهم, واتخذ الشاعر منظر هذا الطائر رمزا لما يدور فى نفسه تجاه هذه القضية والتعبير بالرمز فى مثل هذه القضية أجدى وأكثر فائدة من التصريح بها, إذ يكون الشاعر فى فسحة للتعبير عن إحساسه ومشاعره دون أن يتهمه أحد بشىء, وفى الوقت نفسه يعطى إشارات ورموزا يقف القارئ أو المتلقى من خلالها على مراد الشاعر وقصده, وفى ذلك يعبر قائلا: (٢)

---

(١) ديوانه : مع الحيوان ٤٤ .

(٢) ديوانه السابق ٦٦ .

أطلقونى فقد سئمت إلا سارا وكرهت الأقفاص فى الووض دارا
واكسروا حولى الحصار وفضوا إنما الحر لا يطيق حصارا
لست أرضى الحياة فى قفص الأسـ ـر ولو كان فضة أو نضارا
لست أرضى بالحبس فهو هوان ذلة الحبس تقتل الأحرارا

ويسير الشاعر فى القصيدة على هذا النحو, مبرزا أيامه السابقة وما كان يتمتع فيها من حرية وأمان وحدب من الوالدين, إلى أن ضاق بمن حوله, وأصبح وكأنه فى سجن مظلم فقد معه الجمال والحب والصفو والهدوء, والأنس والنور, وكل ذلك يأتى به الشاعر على لسان هذا الطائر الحبيس رامزا به إلى نفسه, وفى ذلك يقول "عزت شندى" فى الأبيات الأخيرة من القصيدة: (١)

قد فقدت الجمال والحب والصفو وبدلت بالديار ديارا
وافتقدت الهدوء والأنس والنـ ـور وما عدت ألمح الأقمارا
ثم بعت العيش الخصيب بعيش كان قفرا فيما أرى وبوارا
ورأيات الطيور فى الأسر مثلى ليس منا من كفكف الأفكارا
فقضى الليل فى شجون وهم ومع الهم والشجون النهارا
تلك أقدارنا وسبحان بار قد برانا وقدر الأقدارا

وهكذا استطاع الشاعر أن يوظف الرمزية فى شعر الحيوان توظيفا جيدا, حيث تمكن من خلال ذلك من إفراغ ما فى نفسه من دفقات شعورية, تفصح عن تجارب عميقة, بطريقة غير مباشرة من التعبير, متخذا الحيوان

---

(١) السابق ٦٨ .

رمزا لذلك, ومن ثم نستطيع أن نقرر أن "عزت شندى" استطاع بهذه الطريقة أن يعبر عن عدة قضايا ما بين إنسانية واجتماعية, فضلا عن استخدامها فى رثاء الحيوان, بمعنى أن المحور الرمزى كان عاملا مشتركا فى المحاور الأخرى فى شعر الحيوان عند الشاعر. وقد مزج فى الأسلوب والفكرة بين فكر الناقد ودقة ملاحظته وخيال الشاعر وتحليقه, هذا بالإضافة إلى ما امتاز به من صفاء الديباجة, ورهافة الذوق والإحساس الصادق, وهذا بعض ما يميز "عزت شندى" بين الشعراء المعاصرين وبخاصة فى شعر الحيوان.

الفصل الثالث

شعر الحيوان والأداء الفنى عند الشاعر

بعد العرض الذى سبق فى الفصل الثانى وما احتواه من النظـــر فـــى بعض النماذج الشعرية فى الحيوان, ومحاولـــــة الوقـــوف علـــى معانيـــها وأفكارها, نحاول استجلاء أبرز السمات والخصائص التى يمكـــن أن يقـــف عليها الباحث المدقق, سواء فيما يتعلق بالشكل العام لقصيدة الحيوان أو فيمـــا يتعلق بالشكل التعبيرى وما امتازت به الألفاظ والجمل من الخصائص الفنيـــة التى تخدم المعنى وتكشف مراد الشاعر وتفصح عن تجربته.

ومن ثم سيكون حديثنا فى هذا الفصل حول عدة نقاط, من أهمها:

١. بناء قصيدة الحيوان عند الشاعر.
٢. عاطفة الشاعر وشخصيته فى شعر الحيوان.
٣. السهولة والوضوح فى شعر الحيوان.

وسيكون كل ذلك من خلال عرض بعض نماذج شعرية غير التى سبق ذكرها إلا فى القليل النادر الذى لا محيد عن تكراره.

١)بناء قصيدة الحيوان عند الشاعر:

إن المتأمل فى ديوان "مع الحيوان" للشاعر "عزت شندى" مـــن حيـــث شكل القصائد وبنائها الظاهرى يدرك أنه سار على نهج واحد فـــى عرضـــه لمعانيه ومعالجته لهذا الغرض.

ومعنى هذا أن الشاعر أفرد قصائد مستقلة فى وصف حيوان معيـــن, وقد تكثر الأبيات أو تقل بحسب المعانى التى يود الشاعر عرضها وبيانـــها, دون أن يتطرق لمعنى أو لغرض آخر غير الذى سيقت له القصيدة.

وقد لحظنا من خلال تأملنا لذلك الديوان, أن الشاعر وضع قصائد مطولة فى حيوانات مختلفة مثل قصيدة: "الأسد الحبيس" و الكلب المهجور" و"فقدت كلبى" و "مات كلبى" و "فجيعة فى قطة" و "القطة الشهيدة" و"الذئب المحنط" و "اليمامة العاشقة" و "صفا الجو يا ورقاء" و "الطائر الأسير" و "الفرخ الحزين" وهذه كلها – تقريبا – قصائد الديوان وكانت قصيدة "مات كلبى" أطول هذه القصائد, حيث بلغ عدد أبياتها ثمانية وأربعين بينا, وأقصرها قصيدة "الكلب المهجور" حيث بلغ عدد أبياتها اثنين وعشرين بيتا, وباقى القصائد يتراوح عدد أبياتها ما بين خمسة وثلاثين وخمسة وأربعين بيتا, وهذا يعطى دلالة واضحة, على أن الشاعر "عزت شندى" كان يميل إلى البسط فى القول والتفصيل فى المعانى التى يريد أن يسبغها على الحيوان الذى يريد وصفه لتأتى المعانى مستوعبة الصفات الحسية والمعنوية فى مزج مؤثر جميل, وتصوير معبر، فيه قدر واضح من الدقة وحسن الذوق وقوة التأثير.

كما تشير تلك القصائد إلى عمق التجربة وصدق العاطفة, وتمكن الشاعر من أدواته الفنية التى استطاع من خلالها أن يفرغ كل ما فى نفسه من دفقات شعورية وأحاسيس مرهفة, دون أن يتخلل القصيدة شىء يخل بالوحدة الموضوعية لها.

ونلحظ – كذلك – أن طول القصائد أو استقلالها من أول بيت فى القصيدة إلى آخر بيت فيها لم يأت عبثاً أو سدى, وبخاصة القصائد التى رثى فيها الشاعر بعض حيواناته الخاصة التى كان يتعهدها بالرعاية والاهتمام, فقد بلغت قصيدته "مات كلبى" ثمانية وأربعين بيتا, كلها تصور حزنه وأسفه

على موت ذلك الكلب, وتصور - كذلك - مأساة هذا الحيوان وصراعه مع المرض, وكيف كان يقوم الشاعر على خدمته وعلاجه لكن دون جدوى إذ حل القضاء الذى لا مفر منه, ولا تنفع معه الشفاعة ولا الحيل(١).

أمر آخر ينبغى أن نشير إليه أن بناء القصيدة بهذا الشكل فى وصف الحيوان أو رثائه, والعطف عليه لم يكن موجودا فى العصور الأدبية المختلفة(٢), حيث لم يخصص الشاعر فى العصور السابقة قصيدة بعينها لوصف الحيوان أو رثائه, لكنه كان يقدم لقصيدته بعدة أبيات فى وصف الرحلة والحيوان - كما أشرنا من قبل - كما كان يغلب على تلك الأبيات النزعة الحسية فى وصف الحيوان, دون الاندماج الشعورى أو إظهار العطف والرفق به, حتى عندما استقلت بعض القصائد فى العصر الأندلسى والعباسى, لم تكن بهذا الطول الذى وجدناه عند شاعرنا "عزت شندى", كما لم تكن بنفس الأحاسيس والمشاعر التى كانت تتوافر لديه وهذا ما ميز شعره فى هذا الصدد وميزه على بقية الشعراء من سابقيه ومعاصريه.

- ومما سبق يتبين أن بناء قصيدة الحيوان عند"عزت شندى" تميزت بأمرين:

أولهما : استقلالية القصيدة على الحيوان الذى يصفه الشاعر أو يرثيه أو يتخذه رمزا لموضوعات أخرى.

ثانيهما : الاندماج الشعورى وإبراز العطف على الحيوان, دون اللجوء إلى الأوصاف الحسية - كما كان الحال من قبل (٣) - إلا نادرا.

---

(١) راجع تحليل القصيدة فى الفصل الثانى من هذا البحث (المحور الرثائى).

(٢) راجع الفصل الأول (مفهوم الحيوان ومكانته فى الشعر العربى) من هذا البحث.

(٣) أنظر نماذج كاملة فى ديوانه: مع الحيوان مثل قصيدة "الطائر الأسير" و "الذئب المحنط" و "مات كلبى" و"القطة الشهيدة" و "الفرخ الحزين" .

٢) عاطفة الشاعر وشخصيته فى شعر الحيوان :

ويقصد بالعاطفة التجربة أو الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التى يصورها الشاعر حين يفكر فى أمر من الأمور تفكيرا ينم عن عميق شعوره وإحساسه. وفى هذه الصورة أو العاطفة يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتى، وإخلاص فنى. لا إلى مجرد مهارته الفنية فى صياغة القول ليعبث بالحقائق أو يجارى شعور الآخرين لينال رضاهم(١).

وليس ضروريا أن يكون الشاعر قد عانى التجربة بنفسه حتى يصفها, بل يكفى أن يكون قد لاحظها, وعرف بفكره عناصرها, وآمن بها, ودبت فى نفسه حمياها, ولكى يستطيع التعبير عن تلك العاطفة لابد أن يكون دقيق الملاحظة قوى الذاكرة واسع الخيال عميق الفكر. والشعراء مختلفون فى ذلك, فبعضهم يجيد فيما يلحظ ويتخيل وبعضهم لا يجيد إلا فى وصف ما عاناه بنفسه(٢).

ولما كانت العاطفة قائمة على إفضاء الشاعر بما فى نفسه وذاته وما يدور فى خواطره فى صدق وإخلاص. فليس من الصواب أن نخرج التجربة أو العاطفة ذات الموضوع الهين. فمتى استطاع الشاعر أن يضفى عليها من شعوره وتصويره وأخليته القوية ما تبرز شخصيته وتفصح عن صدقه وإخلاصه, وما تنفذ به إلى ما فيها من معان جمالية أو إنسانية فإنها تعد تجربة حقيقية وعاطفة صادقة, استطاع من خلالها الإفصاح عن شخصيته وذاته.

---

(١) أنظر النقد الأدبى الحديث ، د. محمد غنيمى هلال، دار الثقافة – بيروت ١٩٧٣ ، ٣٨٣.
(٢) السابق ٣٨٥ .

والحقيقة التى لا شك فيها أن شعر الحيوان عند شاعرنا "عزت شندى" لا يكاد يخلو من هذه العاطفة الصادقة التى تعبر عن نفسه وشخصيته وأهم ما فيها من ملامح, ذلك بأنه شاعر مرهف الأحاسيس والمشاعر, فضلا عن سرعته - كأى شاعر - فى التأثر وقدرته على التعبير والتصوير, فإذا ما تقلب فى أحوال حياته ومرت به مراحل وأزمات أو تحققت له غايات وآمال انعكس ذلك على حياته, فيكون ضيق النفس شديد الضجر سريع الغضب أو يكون فرحا مسرورا مطمئن النفس, وهو فى كل ذلك يصور ما يحس به ويشعر بوجوده فى نفسه فى قالب شعرى مؤثر ينم عن ذوق عال وموهبة فنية فذة.

ومن الأمثلة الكاشفة لذلك, ذلك النموذج الذى عبر فيه الشاعر عن حالة نفسية تدل على الفرح والسرور وتنطق بصفاء النفس واطمئنان القلب, إلى حد دفع الشاعر إلى الغناء والرقص, ولم يكن ذلك إلا عندما عبر عن هذا الطائر الجميل الذى كان يوقظه لصلاة الصبح, وقد جعله الشاعر مفتاحاً وسببا لإبراز سمات الراحة والاطمئنان وملامح البشر والسرور التى تسيطر عليه, فراح يصور كل ذلك من خلال شدو هذا الطائر وحركاته وانطلاقاته, يقول الشاعر معبرا عن ذلك(١):

قفى وارقصى فوق الغصون وغردى — وضمى على الزغب الجناحين وافردى

وحطى على العش الدفىء وان سجا — بك الليل بعد السعى للرزق فارقدى

وإن عادك الإلف الذى طال بعده — فغنى له عند اللقاء وأنشدى

صفا الجو يا ورقاء والأفق هادئ — فقومى لرب الجو شكرا ورددى

(١) ديوان مع الحيوان ٦٢ .

عطاياه لا تحصى إذا هى عدت فأثنى على نعماه حمدا وعددى

أيا جارتا إن هبت الريح فانشرى جناحيك فى الجو الطليق وجردى

هنيئا لك العيش الرغيد بما حوى من الحسن فاهنى بالربى الخضر وارغدى

وطيبى بزهر فى الخميلة عاطر وورد وريحان وعشب منضد

وكما هو واضح فقد استطاع الشاعر أن يقرن فرحه ونشوته برؤيته لهذا الطائر الجميل وسماعه لشدوه, وقد أفلح الشاعر فى تصوير هذه الحالة من خلال هذه الصورة الحركية المتناسقة المتمثلة فى تلك الألفاظ التى تنم عن حالة السرور والفرح التى تحيط بالشاعر ومن ذلك: قفى وارقصى, غردى - ضمى - افردى - حطى - ارقدى - غنى أنشدى - صفا الجو - الأفق هادئ - انشرى - الجو الطليق - هنيئا لك - العيش الرغيد - الحسن - اهنى - ارغدى- طيبى - عاطر - ورد وريحان وعشب منضد.

فهذه كلها كلمات تشيع جوا من السرور والفرح والبهجة, وفى الوقت نفسه تدل على عاطفة الشاعر ومزاجه المنسجم ونفسه الراضية.

ولما كانت الحال لا تستقر على وضع معين, فقد تلونت عاطفة الشاعر تبعا لتلك الحالة, فإذا كنا قد لاحظنا حالة السرور والبهجة على الشاعر, ففى المقابل نجد حالة الحزن والكآبة التى انتابت نفسه وخيمت على مشاعره وأحاسيسه, ولم يملك إلا أن يفرغ هذا الإحساس وتلك المشاعر من خلال تصويره للفرخ الحزين الذى فقد قرينه وبات حزينا مكروبا تتنازعه الهموم والأحزان, وهو فى الحقيقة يصور مشاعره وأحاسيسه ويعبر عن عاطفته وشخصيته وما ألم بها من هموم وأحزان.

وكان ذلك " الفرخ الحزين" مفتاحا وسببا لتصوير هذا الإحساس الكامن فى نفس الشاعر "عزت شندى" وفى ذلك يقول[١]:

لهفى عليك فـأنت مثلى لـم تـزل	تبكى الرفـاق وكـم تبيـت شـكيا
فى كـل يـوم كنت أمـسى نادبـا	وأهب أسـمع فى الصباح نعيـا
ودعـت خـلا كـان يسكن مـهجتى	وكـذا شـقيقا لـى وكـان صـفيا
حتـى فـقـدت الصـحب مثلك جلهم	وبقيت وحدى فـى الحيـاة شـقيا
وانفـض سـامرهم وولـى جمعـهم	وتفرقـوا تحـت الـتراب قصيـا
ودعت شمـلهمو وعـدت فلـم أجـد	ممـن سـعدت بقربـهم إنسـيا
يا فرخ أقصـر مـن نواحـك لا تكـن	طول الحياة على الرفيـق بكيـا
أو ليـس للدمـع الغزيـر نهايـة؟	أم لست فـى رزء الصديق عزيـا
مـا كنـت أدرى أن يغالبنـى البكـا	فـرخ وكـان مـع البكـاء سـخيا
لكنمـا تـهمى العيـون مـن الأسـى	حتـى ولـو كـان الشـجى أبيـا

وهكذا تبرز - من خلال الأبيات - شـخصية الشـاعر وعاطفتـه, المتشحة بالحزن على فقد الأهل والأحباب, ولعل ذلك ليس أمرا صعبا علـى أى شاعر, لكن تكمن الجدارة الفنية فى إبراز تلك العاطفة فى شعر يعبر عن "حيوان" أحس الشاعر بمأساته, فأدى ذلك إلى اندماجه الشعورى, فراح يعـبر فى تلقائية عن هذا الحيوان وما ألم به مبرزا شخصيته وعاطفته فى أسـلوب جمع بين جمال الصياغة وروعة التصوير.

وقد ساعده على إبراز هذه العاطفة هذا الكم الكبير من الكلمـات إلـى تشيع جوا من الحزن والبكاء المكنون فى نفس الشاعر وخاطره مثل: لهفى -

---

(١) السابق ٧٢ .

تبكى - شكيا - نادبا - نعيا - ودعت خلا - فقدت الصحـــب - شـــقيا - تفرقوا تحت التراب - نواح - بكيا - الدمع الغزير - رزء - عزيا - تهمى العيون - الأسى - الشجى, وكلها - كما نرى - كلمات توحى بمكنون نفـس الشاعر وعاطفته, ويسير الشاعر فى بقية القصيدة على هذا النحو من العاطفة الجياشة والأحاسيس الرقيقة(١).

ونلحظ ملحما آخر من شخصية الشاعر وعاطفته فى شعر الحيـــوان, تمثل فى نزعته الإنسانية المتسامية التى تجلت فى أوضح صورهـــا وهـــو يتناول بعض الحيوانات بالوصف والتصوير, وإذا أدرنا نموذجا لذلك, فإنـا لا نجد أرقى ولا أسمى إنسانية من قصيدته "القطة الشهيدة" وقد قمنـــا بتحليلـــها ورأينا كيف صور مأساة تلك القطة وكيف جعلها مثـــلا للإنســـانية الراقيـــة ونموذجا للأم الرءوم, التى ضحت بأغلى ما تملك من أجل أولادها(٢).

ومن الأمثلة الناطقة بإنسانيته الراقية وعاطفته الرقيقة قصيدته "الطـــائر الأسير" فقد استطاع الشاعر من خلالها إبراز عاطفته وشخصيته التى تـــأبى الضيم والذل وتكره القيد والحبس ولو كان فى قفص مـــن ذهـــب ويـــاقوت, ويأتى من خلال تصويره لهذا الطائر الأسير الحبيس.

ثم يصور الشاعر هذا المنظر الذى يدل على رقته وإنسانيته وتعاطفه مع هذا الطائر الذى فقد أباه وأمه اللذين كانا يضعان الطعام فى فمه وهو لم يزل فرخاً صغيراً لا منقار له, وقد تخيل الشاعر هذه الصورة وهو ينظر إلى ذلك الطائر المأسور الذى لا يستطيع فرارا ولا حراكا, ويعبر عن ذلك فيقول(٣):

---

(١) أنظر بقية القصيدة ٧٣ ، ٧٤ من المرجع السابق .

(٢) راجع تحليل القصيدة ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) ديوان: مع الحيوان ٦٦ ، ٦٧ .

لست أنسى أيـــاما كنـت فرخـا   زغـب الريـش أسـكن الأوكـــارا
ألقط الحب من فم الأب رطـــبا   لـم اكـن بـــعد أعـرف المنقـارا
لست أنســى أبــى هنـاك وأمــى   حين حطا يزقزقانى .. وطـــارا
إذ يهبان فى البكـور خـــماصاً   ويعـــودان يحمـــلان ثـــمارا
يطعمـانى ويؤثرانـــى بعطـــف   رب غـــر لا يفـــهم الإيثـــارا

فهذا المنظر ربما لا يلفت نظر إلا من وهبوا أحاسيس مرهفة ومشاعر إنسانية راقية, وقد استطاع "عزت شندى" أن يفصح عن كل ذلك من خــلال القصيدة كلها وبخاصة هذه الأبيات, إذ نرى فيها اندماجا شـعوريا وتعاطفـا وجدانيا دلا على عاطفة الشاعر وشخصيته.

وهكذا استطاع الشاعر أن يعبر عن عاطفته وشـخصيته فـى شـعر الحيوان بطريقة فنية رائعة جمعت بين جمال التصوير وروعة الديباجة.

٣) السهولة والوضوح فى شعر الحيوان:

المقصود بهذه السمة الأسلوبية سهولة الألفاظ والتراكيب ووضوحــها واستثمار خصائص اللغة بوصفها مادة بناء الشعر, إذ إن الشاعر يعتمـد – فى إبراز تجربته على ما فى قوة التعبير من إيحاء بالمعانى, بالإضافة إلـى دلالات القرائن, وما يمكن أن تضيفه هذه الدلالات على التصوير, عن طريق موسيقية التعبير, وموقعه وتآزر وتآلف كلماته وأثر ذلك فى التصوير(١).

ولكى يكون الأسلوب واضحا وسهلا ومعبرا عــن تجربـة الشـاعر ومراده, ينبغى أن يكون. متجوابا ومتوافقا مع الذوق اللغـوى والتصويـرى لعصره, وخاضعا لقيمة الفكرية ومطالبه التى يود الشاعر تصويرها.

---

(١) أنظر النقد الأدبى الحديث ٤٠٨ .

ومن مهارة الشاعر ودقته أن يسمو بشعره عن مجرد الزخرفة الكلامية أو المهارة فى الصناعة واللعب بالألفاظ, وترصيع الكلمات ونظمها, إذ كل ذلك يطفأ من حرارة التجربة, ويقلل من جدتها وطرافتها وتأثيرها فى نفس المتلقى. لذا فإن الشعر قائم على التصوير عن طريق هذه الأدوات الفنية (الألفاظ والتراكيب) وعلى الشاعر أن يبحث عن الوسيلة والأداة التى يتوصل بها إلى جلاء الصلة بين فكرته والواقع الملموس. ومن ثم ينبغى أن تكون الصورة الشعرية بكل أجزائها واضحة المعالم متناقسة الألوان والأبعاد, فلا يصح أن يضرب بخياله فى الآفاق إلى حد الإبهام, وإنما عليه أن يجمع بين الحقيقة والخيال فى ثوب شعرى يفصح عن تجربته ويلفت نظر الآخرين ويستولى على مشاعرهم وأحاسيسهم كى يشاركونه أحاسيسه ومشاعره, لذا تتضح ضرورة سهولة ووضوح الأسلوب بكل أجزائه فى الداء الشعرى.

وهذا يعنى سهولة الألفاظ ووضوحها وقلة الغريب والبعد عن الإيغال فى المعانى العميقة, وندرة استعمال الألفاظ الوحشية التى لا تناسب الذوق والطبع.

وهذه السمة تبدو واضحة الوضوح كله فى الأعم الأغلب من الصور الشعرية, التى أمكن الوقوف عليها عند شاعرنا "عزت شندى" وهو يتناول الحيوان فى شعره, ومن النماذج الكاشفة لهذه السمة وتلك الظاهرة, قوله يتحدث عن الأسد الحبيس(١):

وذكرت مغنى صبوتى ورأيتنى ... أسرى به مترقبا مترصدا

وذكرت صحوى فى البكور أجول فى ... أرجائه وأصول فيه مهددا

(١) ديوانه ٢٧ ، ٢٨ .

ولكم صرعت الوعل دون مشـــقة   فى ضربة بيـــن القـــرون مســـددا
ولكم شـــققت فريســـتى بمخـــالبى   لم يخلق الله المخالب لى ســـــدى
ولكم قنصت من المها ما أشـــتهى   وكذا الظباء النـــــافرات الشـــردا
فإذا شـــبعت مضيـــت دون تصيـــد   مـــا كنـــت ممـــن طغـــى وتمـــردا

فالشاعر – فى هذه الأبيات – أراد أن يعبر عن صفات الأسد قبـــل أن يحبس فى قفص من الحديد. فحاول إبراز صفتين هامتين فى هذا الحيوان :

أولاهما : القوة والشراسة وشدة الإيقاع بالفرائس من الحيوانات الأخرى.

وثانيتهما : انه يتمتع بالقناعة, فإذا ما نال بغيته وامتـــلأت معدتـــه وأحـــس بالشبع, قنعت نفسه وقلت خطورته, ولم يعد يشـــكل خطـــرا علـــى الإنسان أو الحيوان, وقد عبر الشاعر عن هاتين الصفتين بألفاظ تعـد موجزة بالنسبة للمعانى النى وردت فيها, هذا بالإضافة إلى ســـهولتها ووضوحها وعدم حاجتها إلى شرح أو إيضاح, فلم نجد فيها غريبا أو مبتذلا لا يناسب الطبع والذوق, بل جاءت كلها من المألوف المستعمل الذى يناسب المقام ومتطلبات الذوق العصرى.

ومن النماذج الأخرى المتسمة بالوضوح والتعبير عن مراد الشـــاعر والإفصاح عن عاطفته ومشاعره قوله يرثى كلبه[1]:

وذكرت غداة البين فى لوعة كلبـــى   فلم يحتمل عصـــف النوى بعد قلبى
وفاضت دموع العين حزنا على الـذى   قضى العمر لا ينفك فى ألفة جنـــبى
ودارت بفكـــرى ذكريـــات حفظتـــها   له من معان الصدق والـــود والحـــب
فكيف إذا عـــدت العشـــى يضمنـــى   ويسكب من شوق اللقا أعظم السـكب

---

(١) ديوانه ٣٧ .

وكيف إذا ما باعد العيش بيننا يظل بلا زاد وماء إلى أوبى
فآمنت أن العمر لابد ينقضى ويمسى الفتى تحت الجنادل والترب
ما كنت ممن طغى وتمردا عوار ترى رهن التربص والسلب
وسوف يشد الناس يوما رحالهم وكل مقيم سوف يلحق بالركب

فهذه الأبيات – كما نفهم منها – تعبر عن عدة معان أهمها:

١- حزن الشاعر وتألمه وأسفه على موت كلبه.

٢- بيان وفاء الكلب وحبه لصاحبه وملازمته إياه.

٣- الموت حقيقة واقعة لا مفر منها ولا شفاعة فيها, وان العمر لا بد من انقضائه فى وقت معلوم.

وقد وردت هذه المعانى فى ترابط وانسجام يسلم بعضها بعضا فى تلقائية دون تكلف أو إخلال بوحدة الموضوع وهو رثاء الحيوان, كما نلحظ كذلك عمق التجربة وتمكنها من نفس الشاعر, ومدى رقة مشاعره وأحاسيسه ويقينه بفناء الدنيا وزوالها, وقد استخدم الشاعر لبيان كل ذلك وغيره من المعانى الأخرى ألفاظا سهلة وواضحة منسبكة مع بعضها فى نغم موسيقى منسجم, وأسلوباً امتاز بالسلاسة والجزالة, وصوراً واضحة المعالم, وخيالا قريبا أضفى على الصورة حيوية وجمالا.

ويسير الشاعر – فى ديوانه مع الحيوان – على هذه الطريقة من السهولة والوضوح فى بنائه الشعرى فى كل جزئياته وأدواته, ولنضرب لذلك مثلا آخر يؤكد ما ذهبنا إليه, ففى قصيدته "الفرخ الحزين" يتحدث الشاعر عن الموت وانقضاء الحياة والرحيل إلى الدار الآخرة, وما فيها من النعيم المقيم للمؤمنين العابدين, وفى ذلك يقول(١):

(١) ديوانه ٧٤ .

يا فرخ صبرا فالحياة ستـــنقضى ونرى الأحبة فى الجنـــان سويـــــا
والموت (يا ابن الديك) أمر نـــافذ سـيان فرخـــا ينتقـــى وصبـــيـــا
ولقد خلقتم للهلاك فمـــن قضـــى منكـم سـقيما كـــالمحرق شيــــا
ولأنت مثلى سوف أتبع من مضوا عما قريـــب ثـــم أبعـــث حيـــــا
وهناك تأتلف الصحـــاب بجنـــة تزجى النسيم معطرا ونقيــــــــا
وبساحة حوت الشهيد بروضـــها وتضـــم صديقـــا بـــها ونـــبيـــا
يـــا رب أو عدنـــا بحـــق محمـــد واجعل لقانا فى الخلود هنيـــــا
واقبل شفاعتــــه لنـــا وتولنـــا مـــا دمــت للعبــد الضعيــف وليـــا

ولا يخفى على المتأمل ما فى هذه الأبيات من وضوح الفكرة, وسهولة الأسلوب وشفافية الخيال وبيان الصورة حتى ليفهمها كل من يملك قدراً مـــن المعرفة والتذوق، كما نجد تناسباً بين الألفاظ والمعانى المطلوبة.

وهكذا نستطيع أن نلاحظ سهولة الألفاظ والمصطلحات التى اسـتعملها الشاعر "عزت شندى" فى شعر الحيوان, ومدى توفيقه بين الألفاظ والمعانى.

كما نلحظ – كذلك – أن الشاعر ليس من هواة الزخرفة الكلاميـــة أو اللعب بالألفاظ وإنما كان جل اهتمامه بالمعانى, مع حرصه على إيرادها فـــى صورة من الوضوح فى أسلوبها وشكلها التعبيرى .

وثمة أمر آخر وهو قدرة الشاعر وموهبته الفنية فى تـــأليف الصـــور وجمع أجزائها على أسس فنية وجمالية, لتفصح عن قصده ومراده.

الخاتمة

وبعد أن طوفنا فى ثنايا هذا البحث, يجدر بنا أن نقف لنسجل أهم النتائج التى استخلصناها من التأمل فى موضوعات هذا البحث وجزئياته , ومن أهم هذه النتائج :

أولا : أن الحيوان حظى باهتمام كبير فى الشعر العربى من لدن العصر الجاهلى إلى العصر الحديث, بل إلى وقتنا الحاضر, مع تباين فى طرق العرض والمعالجة, ويرجع ذلك التباين إلى اختلاف ظروف كل عصر عن الآخر.

ثانيا : أن الملامح الحياتية للشاعر "عزت شندى" ودراسته فى الطب وعلم التشريح كانت لها أثر كبير فى اتجاهه نحو الحيوان بالوصف والمعالجة الفنية, فى قوالب شعرية امتازت بعمق التفكير ورهافة الإحساس والاندماج الشعورى مع الحيوان فضلا عن إبراز بعض الصفات الحسية لكن بصورة تختلف عن تناول الشعراء السابقين, إذ كانوا يعتمدون فى أوصافهم للحيوان على إبراز الصفات الحسية أكثر من اندماجهم الشعورى .

ثالثا : ومن خلال النظر فى الدراسة الفنية, تبين لنا مدى الثقافة الواسعة إلى امتاز بها الشاعر مع خيال واسع وفكر متقد ونزوع إلى التجديد فى المعانى والأفكار وكل ما يتعلق بالنص الأدبى, استطاع من خلال ذلك أن يخرج لنا نصوصا شعرية فى الحيوان تعد بصدق لوحات فنية ذات أثر عميق فى نفس المتلقى.

رابعا: من النتائج المهمة كذلك, أن شعر الحيوان عند الشاعر قد اتخذ شكلا مستقلا فيما يتعلق ببناء القصيدة, إذ جاءت قصائده فى الحيوان مستقلة وقاصرة على هذا الغرض, دون أن يدرج فى موضوع آخر من موضوعات الشعر كما كان الحال من قبل.

خامسا : أثبتت الدراسة الفنية كذلك الصلة القوية بين نص الشاعر فى الحيوان وما يعانيه من متاعب وأحزان, وما يعتريه من فرح وسرور, مما يعنى وضوح شخصيته وصدق عاطفته فى شعر الحيوان.

سادسا : أن الشاعر "عزت شندى" احتفى بالأفكار أكثر من احتفائه بالشكل, لكنه استطاع أن يوازن – فى انسجام – بين الشكل والمضمون, بصورة تشير إلى موهبته الفنية وذوقه الأدبى واللغوى الراقى.

المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم :

١- اتجاهات الأدب ومعاركه فى المجلات الأدبية فى مصر, د. على شلش, الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١ .

٢- الأسس النفسية للإبداع الفنى (فى الشعر خاصه) د. مصطفى سويف ططه ٤ دار المعارف ١٩٨١م.

٣- أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى, د/ احمد الحوفى, ط ١, ١٩٥٨ , القاهرة.

٤- الإنسان فى التصور الإسلامى, د/ محمود حمدى زقزوق, مطبعة الأهرام التجارية ٢٠٠١م .

٥- بلوغ الأرب فى شرح لأمية العرب, جمع وتحقيق محمد عبد الحكيم القاضى, محمد عبد الرازق عرفان, دار الحديث ١٩٨٩م.

٦- التطور والتجديد فى الشعر الأموى, د/ شوقى الضيف, ط ٨ دار المعارف ١٩٨١م.

٧- حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره, د.محمد سعد فشوان ط١, مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨٥م.

٨- حضارة العرب - غوستاف لوبون, ترجمة عادل زعيتر, الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م.

٩- الحيوان, لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ, تحقيق وشرح عبد السلام هارون, طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٢م.

١٠- دراسات فى أدب ونصوص العصر الجاهلى, د/ محمد عبد القادر أحمد, ط ١, مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣م.

١١- ديوان البحترى,دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ١٩٨٣م.

١٢- ديوان ابن حمد يس - (ابن حمد يس الصقلى) - تحقيق د/ إحسان عباس طبعة دار صادر بيروت - ١٩٦٠م.

١٣- ديوان أبى نواس, تحقيق وضبط وشرح أحمد عبد المجيد الغزالى, دار الكتاب العربى - بيروت ١٩٨٤م.

١٤- ديوان توفيق (محمد توفيق على)الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م.

١٥- ديوان الفرزدق , دار صادر, بيروت.

١٦- ديوان مع الحيوان,عزت شندى موسى, الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

١٧- ديوان الهمشرى, دراسة وتقديم د. عبد العزيز شرف, الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

١٨- ذو الرمة شاعر الحب والصحراء, د. يوسف خليف, دار المعارف ١٩٧٠م.

١٩- رثاء الأبناء فى الشعر العربى ،إلى نهاية القرن الخامس د.مخيمر صالح موسى يحى,ط ١ مكتبة المنار،الأردن.

٢٠- رثاء النفس بين عبد يغوث الحارثى ومالك بن الريب التميمى,د. إبراهيم الحاوى ط ١ مؤسسة المعارف ١٩٩٨ .

٢١- شرح القصائد العشر, الإمام يحيى بن الخطيب التبريزى, تقديم فواز الشعار, ط ١ مؤسسة المعارف ١٩٩٨م.

٢٢- شعراء ودواوين, أحمد مصطفى حافظ, الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

٢٣- شعر الطبيعة فى الأدب العربى. د/ سيد نوفل ط٢, دار المعارف.

٢٤- الصيد والطرد فى الشعر العربى, د.عباس مصطفى الصالحى ط ١ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨١م.

٢٥- طبقات فحول الشعراء, محمد بن سلام الجمحى, شـــرح محمـــود شـــاكر, الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م.
٢٦- العصر الإسلامى, د/ شوقى ضيف, ط ٩, دار المعارف ١٩٨١م.
٢٧- العصر العباسى الثانى, د/ شوقى ضيف ط ٤, دار المعارف ١٩٨١م.
٢٨- العقد الفريد (ابن عبد ربه) شرح وضبط وترتيب, أحمد أمين, وآخريـــن, مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٩م.
٢٩- فى النقد الأدبي, د/ شوقى ضيف ط ٦, دار المعارف ١٩٨١م.
٣٠- قصيدة الرثاء جذور وأطوار, د/حسين جمعـــة ط ١, دار معـــد للطباعـــة والنشر دمشق - سوريا, ١٩٩٨م.
٣١- لسان العرب - ابن منظور, دار المعارف.
٣٢- المختار من ديوان شوقى للأطفال, (أحمد شوقى) مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م.
٣٣- مختصر تفسير ابن كثير , د/محمد على الصابونى, دار البيـــان العربـــى, ١٩٨٧٨م.
٣٤- النقد الأدبى الحديث, د. محمد غنيمـــى هـــلال ، دار الثقافـــة - بـــيروت ١٩٧٣.
٣٥- وصف الحيوان فى الشعر الأندلسى, د/ حازم عبد الله خضر , طبعـــة دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٧م.
٣٦- الوصف فى الشعر العربى, عبد العظيم قناوى ط ١, مطبعـــة مصطفـــى الحلبى ١٩٤٩م.

٢) الدوريات :

٣٧- مجلة الثقافة عدد ١٠٣ إبريل ١٩٨٢م.
٣٨- مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية عدد ٧, ١٩٨٧م.

فهرست

الموضوع	الصفحة
❁ مقدمة ..	٦٢٧
❁ تمهيد : الشاعر : النشأة والمعالم الحياتية .	٦٣١
الفصل الأول	٦٣٩
مفهوم الحيوان ومكانته فى الشعر العربى	
❁ أولاً : مفهوم الحيوان .	٦٣٩
❁ ثانياً : إطلالة على الحيوان فى الشعر العربى .	٦٤٥
الفصل الثانى	٦٧٤
محاور شعر الحيوان عند الشاعر	
❁ المحور الأول : النزاع الإنسانى والدينى .	٦٧٤
❁ المحور الثانى : رثـــــاء الحيـــوان .	٦٨٨
❁ المحور الثالث : النـــــزوع الرمـــــزى .	٧٠٣
الفصل الثالث	٧١٧
شعر الحيوان والأداء الفنى عند الشاعر	
❁ بناء قصيـــــدة الحيوان عند الشـــــاعر .	٧١٧
❁ عاطفة الشاعر وشخصيته فى شعر الحيـــوان .	٧٢٠
❁ الســـــهولة والوضـــــوح فى شعر الحيوان .	٧٢٥

الموضوع	الصفحة
❁ الخاتمـــــــــة .	٧٣٠
❁ المصادر والمراجع .	٧٣٢
❁ فهرســـــــت .	٧٣٢